الاتجاه المعاصر في التفسير

إعداد

د/ محمد حسن على محمد

كلية الآداب

قسم الدراسات الإسلامية

العام الجامعى

2024-2023

بيانات الكتاب

الكلية : الآداب

الفرقة :الرابعة

المادة : الاتجاه المعاصر في التفسير

التخصص : الدراسات الإسلامية

عدد الصفحات :١٥٠

المؤلف :دمحمد حسن

الرموز المستخدمة

نص القراءة والدراسة

المحتويات

_____

المقدمة ٤-٧

الفصل الأول نشأة علم التفسير

المبحث الأول: نشأة التفسير ومراحله ٨-١٠

المبحث الثانى أقسام التفسير وأنواعه ١١-١٢

المبحث الثالث شروط المفسر، وآدابه ١٣-١٥

المبجث الرابع :المكثرونفى التفسير من الصحابة ١٦-٢٤

المبحث الخامس : قيمة التفسير بالمأثور عند الصحابة ٢٥-٢٧

المبحث السادس : التقسير عند التابعين ومدارسه٢٨-٣٢

الفصل الثانى : التجديد فى التفسير وأثر النزعة العقلانية فى التفسير٤٠-٨٣

الفصل الثالث : رواد المدرسة المصرية فى التفسير ٨٤-١٤٧

فهارس المصادر والمراجع١٤٨-١٥٠

المقدمة

إن علم «التفسير» هو أصل علوم القرآن كلها؛ وهو أول ما نشأ من هذه العلوم، وكانت نشأته بذرة طيبة نبتت وترعرعت فى أحضان «الوحى».

فالمفسر، والمبين الأول عن الله تعالى، هو رسول رب العالمين، ومن أنزل عليه القرآن الذى طولب بأن يكون هو المبين، والموضح، والمفسر له.

قال تعالى: (وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ)[1].

وكان تفسير النبى صلّى الله عليه وسلّم فى الحدود المطلوبة التى احتاج الناس إليها فى زمنه، فلم يؤثر عنه صلّى الله عليه وسلّم أنه فسّر جميع القرآن آية آية.

ذلك أن القرآن كان ينزل فيترجم إلى سلوك، وواقع عملى، وكان هذا السلوك الواقعى هو أعظم ما يفسر القرآن ويبينه، ويوضّحه، إلى جانب أن القرآن كان ينزل بلغة العرب، وما تعارفوا عليه من استعمالاتها البلاغية المختلفة، ولم يكونوا قد اختلطوا- بعد- بغيرهم من أصحاب اللغات الأخرى.

وكان منهج النبى صلّى الله عليه وسلّم فى بيانه وتفسيره للقرآن يقوم على القرآن نفسه، فما هو مبهم فى موضع موضح فى موضع آخر كما فى قوله تعالى:(الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ)(٢). عرّفوا فى سورة النساء بأنهم النبيون، والصديقون، والشهداء، والصالحون فى قوله تعالى: (وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَداءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً)(٣).

---

(١) النحل: ٤٤.

(٢)فاتحة الكتاب: ٧.

(٣) النساء: ٦٩

كما اعتمد تفسيره صلّى الله عليه وسلّم على ما كان «يوقفه الوحى» عليه من التفسير، كما فى قوله تعالى: (إِنَّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ) (١)؛ قال صلّى الله عليه وسلّم؛ الكوثر «نهر فى الجنة أعطانيه ربّى»(٢).

أو ما كان ينزل لسبب من الأسباب الكثيرة الواردة فى مظانها المختلفة من علم التفسير.

ولم يكن ثمّة حاجة إلى تدوين التفسير فى عهده صلّى الله عليه وسلّم لبواعث هامة اقتضتها النبوة، وهى النّهى عن تدوين شىء «غير القرآن» آنذاك، وهو باعث لا يدركه إلا النبىّ بينما يلوكه بالنقد من يجهل مثل هذا الباعث الهام.

ولكن المتفحص لهذا الباعث يرى أنه من قبيل الإرهاصات النبوية للمستقبل، فعدم تدوين شىء من تفسير النبىّ صلّى الله عليه وسلّم، أو شىء من أحاديثه فى غير مجال التفسير، أفسح المجالات الواسعة لظهور علوم الحضارة الإسلامية، وهى مئات العلوم.

لأنه لمّا لم تدوّن علوم القرآن، ولا علوم الحديث؛ ظهر الإفتأت على الأمة ورسولها بظهور الكذابين، والوضاعين، فقام الجهابذة من العلماء لوضع القوانين العلمية الضابطة لعلوم القرآن، ولعلوم الحديث، ولولا ذلك ما شحذت الهمم لمثل هذا القيام.

وكان أول ما ظهر علم تفسير القرآن الذى صار بعد ذلك محتاجا إلى إظهار كافة علوم القرآن علما علما.

فالمفسّر صار يحتاج فى تفسيره إلى معرفة، القراءات الواردة عن المعصوم صلّى الله عليه وسلّم لأن هذه القراءات بمثابة بيان للقرآن، وتفسير له.

واحتاج فى تفسيره إلى معرفة علوم نزوله: كالمكى والمدنى، وما نزل أولا، وما نزل آخرا؛ وغير ذلك من علوم القرآن.

---

(١)سورة الكوثر

(٢) صحيح البخارى بحاشية السندى ٣/ ٢٢١

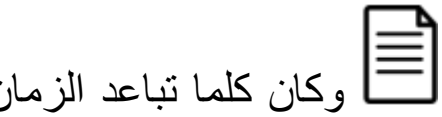 وكان كلما تباعد الزمان عن وقت نزول الوحى قلّت الحاجة إلى ذلك فى زمن التنزيل لقربهم من التعامل الذاتى مع الوحى، وشارحه المكلف بالبيان وهو رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

فلا غرابة إذا أن يكون التفسير هو أمّ علوم القرآن كلها، وأنها إنما ابتكرت ونشأت لخدمة التفسير، فالتفسير إذا علم خادم لكتاب الله عز وجل، وعلوم القرآن كلها، أو جلّها- على أقل تقدير- خادمة لعلم التفسير.

فأصبح من اللازم علينا أن نجعل منهجنا فى هذا المدخل وفقا لما عنونّا به هذه الدراسة وهى (مدخل إلى التفسير وعلوم القرآن) ليخبر عنوان هذه الدراسة عمّا يحتويه باطنها من القصد العلمى، ويلمس كبد الحقيقة منها.

تعريف التفسير: يستعمل التفسير فى الكشف الحسى، كما يستعمل فى الكشف عن المعانى المعقولة، والاستعمال الثانى أكثر.

التفسير: لغة مأخوذ من «الفسر» وهو: الإبانة وكشف المغطّى.

والتأويل: ردّ أحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهر.

وقال ثعلب: «التفسير والتأويل واحد» [١].

واصطلاحا: عرفه الزركشى فى «البرهان» بأنه:

١ - علم يعرف به فهم كتاب الله تعالى المنزل على محمد صلّى الله عليه وسلّم، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه [٢].

٢ - أو هو: «علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية».

٣ - أو هو: علم يبحث فى نزول الآية وسورتها وأقاصيصها، والإشارات النازلة فيها، ثم ترتيب مكيها ومدنيها، ومحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومطلقها ومقيدها، ومجملها ومفسرها.

---

(١)القاموس المحيط (مادة: فسر).

(٢)البرهان فى علوم القرآن للزركشى ١/ ١٣

ويظهر من هذه التعاريف أن موضوع التفسير هو آيات القرآن الكريم من حيث بيان معانيها واستخراج أحكامها وحكمها.

الفصل الأول

نشأة علم التفسير

المبحث الأول: نشأة التفسير ومراحله

كان القرآن ينزل منجما على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على مدى ثلاثة وعشرين عاما فمنه ما كان ينزل على الحوادث والأسباب، فيكون هذا بيانه وتفسيره، ومنه ما كان ينزل ابتداء، وفيه من بواطن العلم ما لا يعرفه أحد إلا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيفسره ويوضحه للناس كما ورد فى تفسير الكوثر فى قوله تعالى: إِنَّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ قال: «الكوثر نهر فى الجنّة أعطانيه ربى».

فكان النبى صلّى الله عليه وسلّم هو المصدر الأول للتفسير، والمرجع الأساسى المبين لمراد الله- تعالى- على وجه الحقيقة.

وانتقل علم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فى معرفة كتاب الله وبيان معانى آياته إلى فئة معينة من أصحابه- رضى الله عنهم- وكانوا ستة عشر نفرا هم أعلم الأمة بالتفسير وهم:

(أ) من الرجال:

١ - أبو بكر الصديق- رضى الله عنه-

٢ - عمر بن الخطاب- رضى الله عنه-

٣ - عثمان بن عفان- رضى الله عنه-

٤ - على بن أبى طالب- رضى الله عنه-

٥ - عبد الله بن عباس- رضى الله عنه-

٦ - عبد الله بن مسعود- رضى الله عنه-

٧ - أبىّ بن كعب- رضى الله عنه-

٨ - زيد بن ثابت- رضى الله عنه-

٩ - أبو موسى الأشعرى- رضى الله عنه-

١٠ - عبد الله بن الزبير- رضى الله عنه-

١١ - أنس بن مالك- رضى الله عنه-

١٢ - أبو هريرة- رضى الله عنه-

١٣ - عبد الله بن عمر- رضى الله عنه-

١٤ - عبد الله بن عمرو- رضى الله عنه-

١٥ - جابر بن عبد الله- رضى الله عنه-

(ب) ومن النساء: ١٦ - عائشة- رضى الله عنها

أما الستة نفر الأخيرة فلم يرو عنهم من التفسير سوى النذر اليسير وبقى علم التفسير منحصرا كله فى العشرة رجال الأول [١].

غير أن المكثرين منهم فى رواية التفسير عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم، بله الاجتهاد أيضا فى الحدود الشرعية انتهى إلى أربعة منهم سنذكرهم أيضا فى الترتيب التالى بحيث الأكثر فالأقل وهم:

١ - عبد الله بن عباس- رضى الله عنه-

٢ - عبد الله بن مسعود- رضى الله عنه-

٣ - علىّ بن أبى طالب- كرم الله وجهه

٤ - أبىّ بن كعب- رضى الله عنه-

وعلى علم هؤلاء الأربعة نما علم التفسير وترعرع.

---

(١) الإتقان للسيوطى ٤/ ٢٠٤

كما نشأت على أيديهم أهم مدارس التفسير فيما بعد، عند ما تفرق الصحابة فى الأمصار بسبب نقل الخلافة الإسلامية من المدينة إلى الكوفة فى زمن الخليفة الرابع علىّ بن أبى طالب- كرم الله وجهه، وبسبب الفتوحات الإسلامية.

(١) فنشأت المدرسة المكية فى التفسير على يد ابن عباس- رضى الله عنهما-

(٢) ونشأت المدرسة المدنية على يد أبىّ بن كعب- رضى الله عنه-

(٣) ونشأت مدرسة العراق فى الكوفة على يد عبد الله بن مسعود- رضى الله عنه-

وبهذا انتقل التفسير من المرحلة الأولى فى عصر الصحابة إلى المرحلة الثانية فى عهد التابعين، ثم انتقل من صدور التابعين إلى صدور أتباع التابعين.

وكان التفسير خلال هذه العهود الثلاثة يحتفظ بطابع الرواية والمشافهة من الصدور إلى الصدور، لأنه كان جزءا لا يتجزأ من علم الحديث، حتى ما جرى عليه علم الحديث بعد ذلك من التدوين فى أواخر عهد الدولة الأموية وبداية الدولة العباسية.

المبحث الثانى

أقسام التفسير وأنواعه

يختلف الباحثون فى تقسيم التفسير باعتبار اصطلاحاتهم فى هذا التقسيم إذ يعتمد ذلك على قرائحهم، واجتهاداتهم فى التفريع وتنظيم العلوم على النحو التالى:

(١) تقسيم عبد الرزاق بن همام الحميرى عن ابن عباس- رضى الله عنهما- قال: التفسير أربعة أقسام:

١ - قسم تعرفه العرب فى كلامها.

٢ - وقسم لا يعذر أحد بجهالته من الحلال والحرام.

٣ - وقسم يعلمه العلماء خاصة.

٤ - وقسم لا يعلمه إلا الله وحده.

قال الزركشى فى البرهان: وهذا تقسيم صحيح [١].

(٢) تقسيم عام يقول به بعض الباحثين فيقسمه إلى قسمين اثنين هما:

أ- تفسير جاف لا يتجاوز حلّ الألفاظ، وإعراب الجمل، وبعض النكات البلاغية.

ب- تفسير هادف غرضه تجلية هدايات القرآن وتعاليمه، وحكمة الله فيما شرع للناس.

(٣) تقسيم ثالثا مشهور علميا، وهو ثلاثة أقسام:

أ- تفسير بالرواية، ويسمى أيضا: «التفسير بالمأثور».

ب- تفسير بالدراية، ويسمى أيضا: «التفسير بالرأى» و «التفسير بالاجتهاد».

---

(١) البرهان للزركشى ٢/ ١٦٤

ج- تفسير بالإشارة ويسمى أيضا: «التفسير الإشارى».

وهذا التقسيم الأخير هو ما يجرى عليه العمل فى الأوساط التعليمية.

المبحث الثالث

شروط المفسر، وآدابه

أولا: شروط المفسر:

ينبغى ألا يتصدى للتفسير من لم يحط بمجمل الشروط التى حددها العلماء لمن يتصدى للبيان عن مراد الله- تعالى- وأهمها:

١ - أن يكون المفسّر صحيح الاعتقاد بالله تعالى، فإن صحة العقيدة تقى المفسّر من تحريف النصوص، وخيانة الآيات، والوقاية من الزلل فيها.

٢ - التخلى عن الأهواء المذهبية، والتحلى بالحق لوجه الحق دون لىّ أعناق الآيات لمذهب يروج له، أو عقيدة خاصة ينحرف بالقرآن إليها.

٣ - ألا يخوض فى التفسير الاجتهادى حتى يتم له النظر والإثبات فى التفسير بالمأثور على النحو التالى:

أ- أن يطلب التفسير من القرآن نفسه، فإن القرآن يشرح بعضه بعضا فى آيات مختلفة.

ب- ثم إن لم يجد: طلب التفسير من السنّة فإن النبى صلّى الله عليه وسلّم هو المبين الحقيقى عن الله- تعالى-(وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) [(١)].

ج- ثم إن لم يجد: طلب التفسير فى أقوال الصحابة، فهم أقرب الناس جميعا إلى رؤية الوحى، ومعرفة الوقائع، وأقرب إلى التقوى وسمت النبى صلّى الله عليه وسلّم، واقرب الأجيال جميعا إلى الملكة اللغوية التى نزل بها القرآن الكريم.

---

(١) النحل: ٤٤

د- ثم إن لم يجد: اجتهد فى تفسير آيات الذكر الحكيم بما حصّل من الأدوات الضرورية واللازمة لكل مفسر وهى تحصيل العلوم المعينة على التفسير والبيان وأهمها:

١ - العلم باللغة العربية

٢ - العلم بالنحو

٣ - العلم بالاشتقاق

٤ - علم الأبنية.

٥ - علوم البلاغة الثلاثة: المعانى، والبيان، والبديع

٦ - علم القراءات.

٧ - علم الكلام.

٨ - علم أصول الفقه.

٩ - علم أصول الدين

١٠ - علم السيرة والقصص.

١١ - علم الناسخ والمنسوخ.

١٢ - علم الحديث.

١٣ - علم الموهبة.

ثانيا: آداب المفسّر:

١ - حسن النية، وسلامة القصد لله تعالى.

٢ - حسن الخلق

٣ - الورع والتقوى.

٤ - تحرى الصدق والضبط فى النقل

٥ - عزّة النفس.

٦ - التواضع ولين الجانب.

٧ - الجهر بالحق.

٨ - التروى والأناة فى سر التفسير.

٩ - حسن الإعداد وطريقة الأداء.

١٠ - تقديم من هو فى العلم أولى منه.

المبحث الرابع

المكثرون فى التفسير من الصحابة

رأينا أن التفسير، قام فى باكورته الطاهرة الأولى على جهود خمسة عشر صحابيا، شاركتهم أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها.

فكان لجهود هؤلاء الستة عشر فضل السبق فى خدمة القرآن الكريم، وإرساء المادة العلمية القيمة لعلم التفسير الذى هو الغرض الأول من انزاله ليكون عقيدة، وتشريعا، وأخلاقا وارساء لدعائم الحضارة الإسلامية.

غير آن ثمة أربعة منهم قامت على أكتافهم مهمة التفسير فى جيلهم، ثم تواصلت مهمتهم الطيبة المشكورة حتى امتدت فيما بعد إلى الأمصار الإسلامية، فيما سنعرفه عند الحديث عن مدارس التفسير فى عصر التابعين، وهؤلاء الأربعة هم: ابن عباس، وابن مسعود، وعلى وأبىّ رضى الله عنهم جميعا، وسنوجز الكلام عنهم فيما يأتى:-

(١) عبد الله بن عباس- رضى الله عنه-

التعريف به:

هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم القرشى، الهاشمى ابن عم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ولد قبل الهجرة بثلاث سنوات، والنبى صلّى الله عليه وسلّم محصور بالشعب بمكة.

توفى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وعمر ابن عباس ثلاث عشرة سنة وقيل: خمس عشرة سنة ،لازم النبىّ صلّى الله عليه وسلّم لقرابته منه عليه الصلاة والسلام، ولأن خالته ميمونة أم المؤمنين زوج النبى صلّى الله عليه وسلّم،مات- رضى الله عنه- بالطائف ودفن بها سنة (٦٩ هـ) وله من العمر سبعون سنة .

علم ابن عباس- رضى الله عنه-

حظى ابن عباس بموهبة علمية فذّة جعلته على درجة عالية من الاجتهاد، ومعرفة تامة بالفقه ومعانى كتاب الله العزيز مما جعل شخصية عظيمة مثل شخصية عمر بن الخطاب الخليفة الثانى- رضى الله عنه- يرفع منزلته عنده ويدنيه منه ويقربه من مجالس كبار الصحابة ومتقدميهم فى السن والمنزلة، حتى أن ابن عباس- رضى الله عنه- يقدم لنا بنفسه هذه الصورة فى بيانه التالى الذى نقله البخارى إلينا.

«كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد فى نفسه، وقال: لم تدخل هذا معنا وإن لنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من أعلمكم فدعاهم ذات يوم، فأدخلنى معهم، فما رأيت أنه دعانى يومئذ إلا ليريهم، فقال: ما تقولون فى قول الله تعالى: إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئا: فقال لى: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا. فقال: ما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أعلمه الله فقال إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وذلك علامة أجلك فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول»[(١)].

لم يصل ابن عباس إلى هذه المنزلة إلا بشيئين هامين:

الأول: دعاء النبى صلّى الله عليه وسلّم له: «اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل» [(٢)].

الثانى: دأبه على تحصيل العلم فقد مكث يعقل النبوة والوحى ثمانى سنوات على الأقل فى بيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عند خالته أم المؤمنين «ميمونة» فنهل من بيت النبوة فى تلك الفترة ما شاء الله له أن ينهل [(٣)].

وبعد أن لحق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بربه انصرف ابن عباس إلى كبار الصحابة يستزيد من علمهم، ويتزود من معارفهم، منهم الخلفاء الأربعة، وزيد بن ثابت وأبىّ بن كعب، وعبد الله بن مسعود وغيرهم، فأدرك

---

(١) من صحيح البخارى بحاشية السندى ٣/ ٢٢٢، الإتقان للسيوطى ٤/ ٢٠٦.

(٢) صحيح البخارى بشرح فتح البارى ١/ ١٣٨.

(٣) التفسير والمفسرون لمحمد حسين الذهبى ١/ ٦٨.

ما فاته فى صغره منهم، ولحقت به دعوة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم له: «اللهم فقهه فى الدين، وعلمه التأويل» «اللهم آته الحكمة»

أسباب نبوغ ابن عباس رضى الله عنه:

لعل من أهم الأسباب التى ساعدت على بروز العلم فى شخص ابن عباس رضى الله عنه واحتلاله لمنزلة العالم الذى تتجه إليه الأنظار، وترشحه العقول للفتيا، وبيان آيات الله العزيز ترجع فى مجملها إلى مجموعة من العوامل أهمها:

أولا: بركة دعاء النبى صلى الله عليه وسلّم [١].

- اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل.

- اللهم علمه الحكمة.

- اللهم آته الحكمة.

- اللهم بارك فيه وانشر منه.

- أخرج أبو نعيم فى «الحلية» عن ابن عباس قال: انتهيت إلى النبى صلى الله عليه وسلّم وعنده جبريل، فقال جبريل: إنه كائن حبر هذه الأمة فاستوصى به خيرا [٢].

* وأخرج عنه أيضا أن النبى صلى الله عليه وسلّم قال لى: نعم ترجمان القرآن أنت.

ثانيا: نشأته فى بيت النبوة منذ عهد التمييز ووعيه للشيء الكثير فى وقت مبكر من حياته عن حياة النبى صلى الله عليه وسلّم بين أهله، وشهوده كثيرا من أحوال الوحى وهو ينزل بالقرآن.

ثالثا: حرصه الشديد على ملازمة كبار الصحابة للأخذ عنهم ما فاته خاصة الأنصار، يقول ابن عباس- رضي الله عنه-: «وجدت عامة حديث رسول

---

(١) الإتقان للسيوطى ٤/ ٢٠٥.

(٢) المصدر السابق

الله صلى الله عليه وسلّم عند الأنصار فإنى كنت لآتى الرجل فأجده نائما، لو شئت أن يوقظ لى لأوقظ، فأجلس على بابه تسفى على وجهى الريح حتى يستيقظ متى ما استيقظ، وأسأله عما أريد ثم أنصرف»[1].

رابعا: بلوغه مرتبة الاجتهاد، وعدم تحرجه منه، وشجاعته فى بيان ما يعتقد أنه الحق، وما ذلك إلا عن علم أوتيه.

خامسا: عنايته الفائقة، واهتمامه البالغ بلغة القرآن، يبحث عنها فى ألسنة العرب ولهجاتهم خاصة فى دواوين الشعر القديم، ويرى أن الشعر هو ديوان العرب وأصل لغتهم، فلا يمنعه مانع من أن يسافر فى سبيل كلمة من كتاب الله تعالى غاب فهم معناها عنه. يقول: «**ما كنت أعرف معنى «يحور»** فى قوله تعالى:

(إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ)[2] حتى كنت فى البادية فسمعت أعرابية تقول لابنتها وقد تركت غنمهما، لماذا تركت الغنم؟ حورى. أى ارجعى»

طرق الرواية عن ابن عباس رضى الله عنه:

يعتبر ما أثر عن ابن عباس- رضى الله عنه- فى التفسير، كما هائلا ليس له مثيل عند مفسرى الصحابة، إذ لا نكاد نجد آية من كتاب الله تعالى ليس لابن عباس فيها تفسير، مما جعل علماء الأثر يقفون موقف الارتياب من هذه المرويات ويتتبعون طرقها بالنقد، وقد لخص الدكتور محمد حسين الذهبى أهم هذه المرويات فيما يأتى باختصار:

١ - طريق: معاوية بن صالح، عن علىّ بن أبى طلحة، عن ابن عباس وهذه أجود الطرق عنها.

قال الإمام أحمد- يرحمه الله تعالى: «إن بمصر صحيفة فى التفسير رواها علىّ بن أبى طلحة، لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصدا ما كان كثيرا» [3].

---

(١) لإتقان للسيوطى ٤/ ٢٠٥.

(٢) الانشقاق: ١٤

(٣) التفسير والمفسرون ١/ ٧٧ - ٨١ (٢).

٢ - طريق: قيس بن مسلم الكوفى، عن عطاء بن السائب، عن سعيد ابن جبير، عن ابن عباس.

وهذه الطريقة صحيحة على شرط الشيخين، ويخرج منها الفريابى كثيرا والحاكم فى مستدركه.

٣ - طريق: ابن إسحاق- صاحب السير- عن محمد بن أبى محمد مولى آل زيد بن ثابت عن عكرمة- أو سعيد بن جبير- عن ابن عباس.

وهى طريقة جيدة وإسنادها حسن، خرج منها ابن جرير، وابن أبى حاتم والطبرانى فى المعجم الكبير.

٤ - طريق: إسماعيل بن عبد الرحمن (السّدى الكبير) تارة عن أبى مالك وتارة عن أبى صالح عن ابن عباس.

والسّدى: مختلف فيه، وفيه تشيع لم يخرج منه ابن أبى حاتم وخرج له ابن جرير.

٥ - طريق عبد الملك بن جريج، عن ابن عباس.

وهذه الطريقة فيها الصحيح والسقيم، وتحتاج إلى دراية وحنكة فى معرفة الجرح والتعديل لمن يأخذ منها [١].

٦ - طريق: الضحاك بن مزاحم الهلالى، عن ابن عباس رضى الله عنه، وهى طريقة منقطعة لأن الضحاك روى عن ابن عباس ولم يلقه، وهى مرضية فى إجمالها، ومن أى طرقها.

٧ - طريق: عطية العوفى، عن ابن عباس رضى الله عنه.

وهى غير مرضية أيضا لضعف عطية، وإن خرج منها ابن جرير، وابن أبى حاتم كثيرا.

٨ - طريق: مقاتل بن أبى سليمان الأزدى الخراسانى.

وهو الذى قال فيه الشافعى: «الناس عيال على مقاتل فى التفسير».

---

(١) الإتقان للسيوطى ٤/ ٢٠٧.

ومع ذلك ضعفه علماء الفن، وكذبه غير واحد، واشتهر عنه التجسيم والتشبيه.

٩ - طريق: محمد بن السائب الكلبى، عن أبى صالح، عن ابن عباس- رضى الله عنه- وهذه أوهى طرق الرواية عن ابن عباس رضى الله عنه.

وإن كان تفسير ابن السائب أطول وأشيع التفاسير، ويروى عنه محمد ابن مروان (السّدى الصغير)، فإذا انضم هذا إلى ابن السائب فإن هذه سلسلة الكذابين.

(٢) عبد الله بن مسعود- رضى الله عنه-

هو: عبد الله بن مسعود بن غافل: أبو عبد الرحمن المضرى، الشهير ب «ابن أم عبد» نسبة إلى أمه: أم عبد بنت عبد ود الهذلية.

كان- رضى الله عنه- قصيرا، نحيفا، خفيف اللحم، شديد الأدمة،و سادس من أسلم، وأول من جهر بالقرآن بمكة وأسمعه قريشا بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

كان فى خدمة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فى أكثر شئونه: فهو صاحب طهوره وسواكه، ونعله، يلبسه إياه إذا قام، ويخلعه ويحمله فى يده إذا جلس، ويمشى أمامه إذا سار، ويستره إذا اغتسل، ويوقظه إذا نام، ويلج عليه داره بغير حجاب، حتى ظن من رآه لأول مرة، أنه من أهل بيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

هاجر الهجرتين، وصلى القبلتين، وشهد مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سائر المشاهد بدرا، وأحدا، والخندق، وبيعة الرضوان، كما شهد اليرموك بعد وفاة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وهو الذى أجهز على أبى جهل يوم بدر.

شهد له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالجنة، وشهد له بالفضل.

أخرج أحمد فى مسنده عن علىّ- كرم الله وجهه- قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «لو كنت مؤمرا أحدا دون مشورة المؤمنين لأمّرت ابن أم عبد».

ولى بيت مال الكوفة لعمر، وعثمان رضى الله عنهما ،ومات بالمدينة ودفن فى البقيع سنة (٣٢ هـ) وعمره بضع وستون سنة [١] . منزلته فى العلم:

* كان ابن مسعود- رضى الله عنه- من أحفظ الصحابة لكتاب الله تعالى.

* وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يحب أن يسمع القرآن منه.

يقول ابن مسعود: قال لى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «اقرأ علىّ سورة النساء» قال: قلت أقرأ عليك، وعليك أنزل؟ قال: إنى أحب أن أسمعه من غيرى، فقرأت عليه، حتى بلغت:(فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً) [٢]. فاضت عيناه صلّى الله عليه وسلّم.

منزلة ابن مسعود فى التفسير:

* تظهر منزلة ابن مسعود التفسيرية فى تقديمه لنفسه، وفى ثناء أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على مكانته ومنزلته فى العلم، وفى تقديم هذه الشهادات سواء كانت على لسان ابن مسعود نفسه باعتباره كلاما حقيقيا بعيدا عن الفخر والخيلاء، أو كانت على لسان بعض أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

أ- يقول ابن مسعود- رضى الله عنه- عن نفسه لما بلغه تحريق عثمان- رضى الله عنه- للمصاحف: «لقد علم أصحاب محمد أنى أعلمهم بكتاب الله- وما أنا بخيرهم- ولو أنى أعلم أن أحدا أعلم بكتاب الله منى تبلغه الإبل لأتيته».

---

(١) التفسير والمفسرون للدكتور/ محمد حسين الذهبى ١/ ٨٣ – ٨٨.

(٢) النساء: ٤١.

قال أبو وائل: «فقمت إلى الحلق أسمع ما يقولون، فما سمعت أحدا من أصحاب محمد ينكر ذلك عليه».

* ويقول ابن مسعود- رضى الله عنه: «أخذت من فىّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سبعين سورة». ويقول: «والذى لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت، وأين نزلت، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله منى تناله المطايا لأتيته»[١].

هذه شهادة ابن مسعود على نفسه وهى شهادة ما قصد بها التباهى والتعالى، وإنما قصد بها البيان، والإيضاح أن ما عنده من علم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أحق

وأسرع أن يحمل عنه، حتى لا يضيع بذهابه.

ب- أما شهادة أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وتلاميذه فمنها :

- روى أبو نعيم فى «حلية العلماء» عن أبى البحترى قال: قالوا لعلىّ أخبرنا عن ابن مسعود، قال: «علم القرآن والسنّة ثمّ انتهى، وكفى بذلك علما».

- وقال عقبة بن عامر- رضى الله عنه: «ما أدرى أحدا أعلم منه بما نزل على محمد بن عبد الله، فقال أبو موسى: إن تقل ذلك، فإنه كان يسمع حين لا نسمع، ويدخل حين لا ندخل».

- وقال تلميذه مسروق: «كان عبد الله يقرأ علينا السورة ثم يحدثنا فيها، ويفسرها عامة النّهار» [٢].

مرويات ابن مسعود ومبلغها من الصحة (٢):

إن الحكم على مرويات ابن مسعود بالصحة والسلامة، أو بالضعف والسقم ليس بالنظر إلى ابن مسعود نفسه، وإنما بالنظر إلى من روى عنه بطبيعة الحال.

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٤/ ٢٠٤.

(٢) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٤/ ٢٠٥.

ولقد حصر الدكتور/ محمد حسين الذهبى مرويات ابن مسعود فى خمسة طرق سلم منها أربعة طرق كاملة، فكان حظه فى تلاميذه، ونقلة علمه أكثر من ابن عباس- رضى الله عنه- وقد سبق أن عرفنا أن مرويات ابن عباس لا يكاد يسلم منها أكثر من طريقين، والضعف فى أكثر مرويات ابن عباس فى التفسير كانت فى نقلة علمه كما عرفت.

ونقدم بين يديك طرق الرواية عن ابن مسعود فيما يأتى:

١ - طريق الأعمش، عن أبى الضحى، عن مسروق، عن ابن مسعود

- طريق مجاهد، عن أبى معمر، عن ابن مسعود.

٣ - طريق الأعمش، عن أبى وائل، عن ابن مسعود.

٤ - طريق السّدّى الكبير، عن مرة الهمدانى، عن ابن مسعود.

٥ - طريق أبى روق عن الضحاك، عن ابن مسعود.

أما الطرق الثلاثة الأولى فقد اعتمدها البخارى فى صحيحه.

وأما طريق السّدّى الكبير (إسماعيل بن عبد الرحمن) فحديثه عند مسلم وأصحاب السنن الأربعة، وقد جمع من الأئمة فيهم: شعبة، الثورى (١).

وأما الطريق الخامس: عن الضحاك، عن ابن مسعود، فقد حكم عليه العلماء بالانقطاع لأن الضحاك لم يلق ابن مسعود يرحمهما الله تعالى.

وهكذا بعد أن قدمنا بين يديك ثانى أربعة من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ممن علموا الكتاب والحكمة، وعكفوا على تفسير آيات الله، وكانوا أقرب إلى تأدية مراد الله تعالى ممن جاء بعدهم، فنهلت الأجيال من فيض معينهم، وغزير ما أعطوا من فقه الوحى فبنوا هذا العلم- علم التفسير- وأقاموه على أعمدة صحيحة راسخة، أشهر بناتها ابن مسعود فحق لنا أن نحفر اسمه فى ذاكرتنا وذاكرة التاريخ لعلم التفسير ، ونظرا لكثرة المفسرين من الصحابة نكتفى بما قد سبق .[١]

(١) للمزيد انظر : مدخل إلى علم التفسير لعبد الجواد خلف ص (٩١).

المبحث الخامس

قيمة التفسير المأثور عن الصحابة رضى الله عنهم

لا شك أن الصحابة العشرة الذين اشتهروا بتفسير القرآن الكريم هم الذين أرسوا قواعد علم التفسير، وأقاموا دعائمه باعتبار أنهم المصدر الأول الذى شاهد الوحى، وعاصر التنزيل، هم بهذا أصل هذا العلم وحملته، وكلامهم فيه مرده إلى المعصوم صلّى الله عليه وسلّم.

وعلى هذا الأساس فقد اهتم العلماء اهتماما كبيرا «بمأثورات» الصحابة المفسرين خاصة المكثرين منهم فى الرواية عن النبى صلّى الله عليه وسلّم، أو باجتهادهم باعتبار أن من عنى منهم بتفسير القرآن الكريم هم من اهتموا بجمعه، وحفظه، ومعرفة أسباب نزوله، وناسخه ومنسوخه، وحلاله وحرامه وأوجه قراءاته ممن تناولناهم بالدراسة السابقة وهم: عبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وعلى بن أبى طالب، وأبىّ بن كعب- رضى الله عنهم جميعا.

ونظرا إلى أن تفسير هؤلاء الأئمة الكبار منه ما يعود إلى أسباب النزول ومنه ما يعود إلى اجتهاد مفسرى الصحابة لذلك نرى أن العلماء انقسمت نظرتهم إلى قيمة التفسير المنقول عن الصحابة على ما يأتى:

١ - يرى الحاكم النيسابورى أن تفسير الصحابى الذى شاهد الوحى، وعاصر التنزيل له حكم الحديث المرفوع إلى النبى صلّى الله عليه وسلّم، وهو بهذا ينقل عن البخارى ومسلم ما ذكراه.

يقول الحاكم: «ليعلم طالب الحديث أن تفسير الصحابى الذى شاهد الوحى والتنزيل- عند الشيخين- حديث مسند» (١).

أما اعتبار الحاكم بأن تفسير الصحابى له حكم الحديث المرفوع فهو اعتبار «مطلق وعام». إذ لا يخلو تفسير الصحابى من الاجتهاد برأيه- وإن قل- فى زمانهم، لكنه كان موجودا وبارزا خاصة فى ما نقله الرواة من تفسير ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهما.

ولهذا نرى ابن الصلاح صاحب المقدمة المشهورة فى علم الحديث يقيد هذا العموم والإطلاق بما إذا كان المأثور عن الصحابة متعلقا بسبب نزول، أو برواية يسندها الصحابى إلى المعصوم صلّى الله عليه وسلّم.

ومن هنا نرى أن تفسير الصحابى نوعان:

١ - نوع موقوف على الصحابى، وهو ما يتعلق باجتهاده فى تفسير النص القرآنى.

٢ - ونوع مرفوع إلى النبى صلّى الله عليه وسلّم يسنده الصحابى، أو له حكم المرفوع كذكر سبب النزول.

خصائص تفسير الصحابة، ومميزاته :

١ - لم يكن التفسير فى هذا العهد تفسيرا مكتوبا، ولا مدونا، وإنما كان شأنه شأن علم الحديث. والسبب فى ذلك أن الأمة كلها فى هذه الفترة اعتمدت على نقل علمها رواية ومشافهة، لا تدوينا ولا كتابة لوجود النهى الصارم عن تدوين غير القرآن خوف إلباسه بما ليس منه لقوله صلّى الله عليه وسلّم: «لا تكتبوا عنى شيئا ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه» اللهم إلا ما كان ينقله البعض من الحفاظ والمفسرين على هوامش مصاحفهم من أوجه القرآن ولغاته فظنها المتأخرون عنهم أنها من تفاسيرهم.

٢ - لم يأخذ التفسير شكلا منتظما يتماشى مع ترتيب السور، أو حتى ترتيب آيات السورة الواحدة.

٣ - لم يستقص أى مفسر من كبار مفسرى الصحابة ومكثريهم جميع آيات القرآن الكريم، وإنما فسروا فقط ما غمض فهمه على الناس، أو ما عرفوا له أسبابا للنزول، أو ما كان جوابا نزل به الوحى لسؤال سائل.

٤ - اتفاق جيلهم على الفهم العام لمعظم آيات القرآن باعتبار معايشتهم لنزوله، وعدم اختلاف مفسريهم إلا فى النادر القليل.

٥ - قلة الاستنباط الفقهى لقلة الحوادث والواقعات والمستجدات.

٦ - الاقتصار على التفسير لغريب الألفاظ التى كانت تغيب على معرفة البعض منهم لكونه على لغات قبيلة دون أخرى مثلا.

تلكم هى المرحلة الأساسية فى بيان مراد كلام الله- تعالى- وهى مرحلة كريمة لها طابع نورانى لم تشبها شوائب عقلية، ولا إحن مذهبية .. لك أن تسميها باسم المرحلة الأولى فى التفسير، ولك أن تسميها باسم الصحابة رضوان الله عليهم ...

المهم عندنا أن مصدرها نبع صاف .. وموردها صاحب كريم.

المبحث السادس

التفسير فى عصر التابعين ومدارسه

بدأت الفتوحات الإسلامية فى أواخر عهد النبى صلّى الله عليه وسلّم، ثم بدأت تتسع شرقا، وشمالا، وغربا، حتى أتت على مملكة كسرى، والروم، ومصر، وما لبث الجهاد أن حمل الصحابة- رضوان الله عليهم- إلى كل هذه البلدان واستقر العديد منهم فيها، والتف الناس حولهم متشوقين إلى هؤلاء النفر الكرام البررة الذين رأوا النبىّ صلّى الله عليه وسلّم، وعاصروا الوحى، ونالوا شرف القتال فى الغزوات الكبرى.

ومع ذلك فقد تفرغ منهم للعلم فى موطن الوحى عبد الله بن عباس فى مكة، وأبىّ بن كعب فى المدينة فلم يشأ كل منهما أن يغادر موطنه الذى ولد فيه فنشأت على أكتافهما مدارس التفسير فى الحرمين الشريفين. بينما استقر علىّ ومن قبله ابن مسعود فى العراق فقامت بهما مدارس التفسير فيه.

مدارس التفسير فى عصر التابعين :

وبذلك شاءت إرادة الله- سبحانه وتعالى- إلا أن تقوم على عاتق المشاهير الأربعة أهم مدارس التفسير، وأن يكون حظ التابعين من علمهم الحظ الموفور، وأن تمتد بهم فى أشخاص تلاميذهم السمة الأساسية لتفسير كتاب الله العزيز.

ومما تجدر الإشارة إليه أن كلمة «مدرسة هنا» لا تعنى بناء خاصا لتلقى علم التفسير كما هو الحال فى زماننا، ولكنه تعبير تجاوزى عن بداية الاستقرار لتلقى العلم فى مكان ما .. ليكن المسجد، وليكن السؤال فى الطريق العام من التلميذ للأستاذ أيا ما كان فقد أصبح لابن عباس تلاميذه من التابعين فى مكة.

وكذلك لأبيّ تلاميذه من التابعين فى المدينة، ولعلىّ وابن مسعود تلاميذهما فى العراق.

ولنلق ضوءا بسيطا على كل مدرسة وأشهر تلاميذها باختصار شديد.

١. المدرسة المكية فى التفسير وأشهر تلاميذها:

شيخها: عبد الله بن عباس- رضى الله عنه- وقد سبق لك أن عرفت قيمته ومنزلته العلمية، وأدواته ومصادره فى التفسير.

تلاميذها: وقد أخذ عن ابن عباس علمه فى مكة ثلّة من التابعين أشهرهم:

١ - سعيد بن جبير بن هشام الأسدي: أبو محمد، حبشى الأصل، أسود اللون، أبيض الخصال، أخذ عن ابن عباس- رضى الله عنهما- القراءة والتفسير، وهو ثقة حجة.

٢ - مجاهد بن جبير: أبو الحجاج المخزومى، أوثق تلاميذ ابن عباس- رضى الله عنهما- من القراء المشهورين، توفى بمكة سنة ١٠٤ هـ وهو ساجد.

٣ - عكرمة (مولى ابن عباس) أبو عبد الله البربرى المدنى، أصله من البرير بالمغرب. كان جريئا على العلم، ولذلك توقف بعض العلماء عن توثيقه، ومع ذلك فعكرمة- يرحمه الله- لم يثبت عليه شىء يلام عليه، وقد فند مطاعن الطاعنين عليه الشيخ محمد حسين الذهبى فلتراجعه هناك (١). وتوفى- رحمه الله- سنة ١٠٤ هـ.

٤ - طاوس بن كيسان اليمانى الحميرى. أبو عبد الرحمن. كان على جانب عظيم من الورع والتقوى حتى صار شيخ اليمن، جالس أكثر من خمسين صحابيا، وكان خبيرا متقنا لمعانى كتاب الله تعالى، توفى سنة ١٠٦ هـ بمكة المكرمة أثناء حجه إليها من اليمن.

٥ - عطاء بن أبى رباح المكىّ القرشى: أبو محمد، توفى سنة ١١٤ هـ. كان من سادات التابعين فقها وعلما، وورعا، وفضلا زيّنه الله بالعلم ونوّره

بالورع، وأفاض عليه من نوره مع أنه كان- يرحمه الله- أسود، أعور، أفطس، أشل، أعرج، ثم عمى بعد ذلك، فأنّا يدانيه منّا أحد؟

٢. المدرسة المدنية فى التفسير، وأشهر تلاميذها:

شيخها: أبىّ بن كعب بن قيس الأنصارى من السابقين للإسلام من بنى النجار، ومن السابقين فى خدمة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وخدمة القرآن، كتابة، وحفظا، وعلما بقراءاته.

تلاميذها: حمل علم أبىّ- رضى الله عنه- فى المدينة أناس كثيرون من التابعين كان من أشهرهم :

- أبو العالية: رفيع بن مهران الرياحى. أدرك الجاهلية، وأسلم بعد وفاة النبى صلّى الله عليه وسلّم بسنتين وهو من ثقات التابعين المشهورين فى التفسير، ونسخة كبيرة من تفسير أبىّ بن كعب- رضى الله عنه- يرويها أبو العالية، وأخرج منها الأئمة فى تفاسيرهم، مات- يرحمه الله تعالى- سنة ٩٠ هـ.

٢ - محمد بن كعب بن سليم القرظى، المدنى: أبو حمزة من حلفاء الأوس.

روايته عن أبىّ بن كعب بالواسطة، لكنه اشتهر بالثقة، والعدالة، والورع وكان من أفاضل أهل المدينة علما بالقرآن، توفى سنة ١١٨ هـ.

٢ - زيد بن أسلم العدوى المدنى: أبو أسامة. اشتهر عنه التفسير بالرأى دون تحرج، ولكنه كان ثقة، لم ينسبه أحد إلى مذهب من المذاهب المبتدعة، وكان من أشهر من تلقى علم زيد بن أسلم: مالك بن أنس إمام دار الهجرة، وابنه عبد الرحمن بن زيد، توفى- يرحمه الله تعالى- سنة ١٣٦ هـ تقريبا.

٣. المدرسة العراقية وأشهر تلاميذها[١]:

شيخها: عبد الله بن مسعود- رضى الله عنه. والواقع: أن عليا- كرم الله وجهه- وكذلك كثير من الصحابة يعدون من شيوخ هذه المدرسة حيث تلقى أهل العراق العلم عنهم جميعا. غير أن أحدا منهم لا ينازع عبد الله بن مسعود فى مشيخة هذه المدرسة لاعتبارات أهمها:

---

(١) التفسير والمفسرون ١/ ١١٠.

١ - شهرة ابن مسعود فى القراءات والتفسير.

٢ - تعيينه رسميا من قبل الخليفة الثانى عمر- رضى الله عنه- ليكون معلم أهل الكوفة ووزير أميرها عمار بن ياسر مما جعل الكوفيين يجلسون إليه ويأخذون عنه أكثر من غيره من الصحابة- رضوان الله عليهم. حتى أن العلماء يقولون بأن ابن مسعود هو الذى أسس «الرأى» فى مسائل الخلاف وهو الذى وضع الأساس لهذه الطريقة فى الاستدلال، والتى اشتهر بها أهل العراق فيما بعد. ومن المرجح أن تؤثر هذه الطريقة فى ظهور تفسير القرآن الكريم بالاجتهاد والرأى خاصة فى استنباط المسائل الشرعية للواقعات المستجدة فى عصورهم كنتيجة طبيعية من نتائج إعمال الرأى فى فهم النصوص الشرعية من القرآن والسنة.

تلاميذها: تتلمذ على ابن مسعود- رضى الله عنه- عدد كبير من التابعين- من أهل العراق فحملوا عنه علما كثيرا، كان من أشهرهم:

١ - علقمة بن قيس بن عبد الله النخعى الكوفى. أشهر من روى عن ابن مسعود، وأعلمهم بعلمه على الإطلاق، كان ثقة، مأمونا، حتى قال فيه مرة الهمدانى: «كان علقمة من الربانيين». مات وعمره تسعون سنة فى «٦١ هـ».

٢ - مسروق بن الأجدع بن مالك الهمدانى الكوفى: أبو عائشة. قيل: سمّى مسروق، لأنه سرق فى صغره ثم وجد. كان من أعلم تلاميذ ابن مسعود، وكان شريح القاضى يستشيره فى معضلات المسائل، امتاز بورعه، وعلمه، وعدالته، وكانت وفاته سنة «٦٣ هـ».

٣ - الأسود بن يزيد بن قيس النخعى: أبو عبد الرحمن، المتوفى سنة «٧٤ هـ» بالكوفة. كان من كبار التابعين، وثقاتهم، على جانب عظيم من فهم كتاب الله وكان من صوّام الدهر معدود فى أصحاب ابن مسعود بالافتاء.

٤ - مرّة بن شراحيل الهمدانى، الكوفى العابد، الملقب ب «مرة الخير». و «مرة الطيب» لكثرة صلاحه، وشدة روعه. سجد «مرة» حتى أكل التراب وجهه، وكان يصلى كل يوم ستمائة ركعة. توفى سنة «٧٦ هـ» [١].

٥ - عامر الشعبى: عامر بن شراحيل الشعبى، الحميرى، الكوفى، التابعى الجليل، قاضى الكوفة، سمع من ثمانية وأربعين صحابيا. يقول عنه ابن سيرين:

«قدمت الكوفة وللشعبى حلقة، وأصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يومئذ كثير». كان فقيها، شاعرا، ثقة، وكان يقال عنه: «ابن عباس فى زمانه».

٦ - الحسن البصرى: الحسن بن أبى الحسن يسار البصرى، مولى الأنصار كان غزير العلم بكتاب الله، جامعا، عالما، فقيها، ثقة، مأمونا، قال فيه أبو جعفر الباقر:

«ذلك الذى يشبه كلامه كلام الأنبياء [٢]

٧ - قتادة بن دعامة السدوسى: أبو الخطاب الأكمه، عربى الأصل، سكن البر.

كان واسع الاطلاع فى الشعر العربى، بصيرا بأيام العرب، عليما بأنسابهم وكان ثقة، مأمونا، وكان من علماء الناس بالقرآن والفقه، ومن حفاظ زمانه.

---

(١) هذيب التهذيب ١٠/ ٨٨ – ٨٩.

(٢) المرجع السابق ١٠/ ٨٨ – ٨٩.

المبحث السابع

قيمة التفسير المأثور عن التابعين

اختلف علماء الأمة فى قبول «رأى» التابعى فى التفسير، ومدى الالتزام به، إذا كان هذا قولا مستقلا له موقوفا عليه غير مسند إلى صحابى، أو غير مرفوع إلى النبىّ صلّى الله عليه وسلّم. وهم فى ذلك على رأيين:

الأول: أن قول التابعى ورأيه الشخصى فى التفسير، هو كقول آحاد الناس غير ملزم بقبوله وللأمة أن تأخذ به أو تأخذ برأى مجتهد سواه فى عصره أو بعد عصره وذلك للأسباب الآتية:

١ - أن التابعى (فى رأيه الشخصى) ليس له سماع من النبىّ صلّى الله عليه وسلّم، ولا من الصحابى حتى تلتزم الأمة رأيه.

٢ - أن التابعى (فى رأيه الشخصى) شأنه شأن غيره من جيله ومن بعده لم يرث القرائن التى نزل عليها الوحى، فيجوز عليه الخطأ- كما يجوز على غيره- فى فهم المراد، وظن ما ليس بدليل دليلا.

٣ - أن التابعى لم تنصّ على عدالته، كما نص عليها بالنسبة للصحابة.

٤ - أن جميع مجتهدى الأمة (من التابعين وأتباعهم) نصّوا على ذلك، ولكل من الأئمة الأربعة مقالة مشهورة عنه تصلح كدليل لهذا الرأى.

أ- يقول أبو حنيفة- يرحمه الله تعالى: «ما جاء عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم فعلى الرأس والعين، وما جاء عن الصحابة تخيرنا. وما جاء عن التابعين فهم رجال ونحن رجال».

ب- ويقول مالك- يرحمه الله تعالى: «كل منا يؤخذ من قوله ويرد عليه إلا صاحب هذا القبر» مشيرا إلى قبر النبى صلّى الله عليه وسلّم.

ج- ويقول الشافعى- يرحمه الله تعالى: «إذا رأيت قولى يخالف قول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فاضرب بقولى عرض الحائط».

د- ويقول أحمد بن حنبل- يرحمه الله تعالى: «إذا صح الحديث فهو مذهبى» فقد قال هؤلاء الأئمة كلمة الفصل فى هذه المسألة وهى أن قول التابعى «الخاص» غير واجب الأخذ به فى ما يفسره من آيات الله تعالى، وشأنه فى ذلك شأن غيره من المفسرين.

الثانى: أن قول التابعى «الشخصى». غير المسند إلى صحابى، وغير المرفوع إلى النبى صلّى الله عليه وسلّم قول يؤخذ بالقبول، ويعتد به. وحجتهم فى ذلك: أن التابعين تلقوا غالب تفسيراتهم عن الصحابة [١] فمجاهد مثلا يقول: «عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها».

وقتادة يقول: «ما فى القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئا»[٢]. وهذا رأى أكثر المفسرين.

تحقيق المسألة: لابن تيمية- يرحمه الله تعالى- كلمة جيدة فى هذه المسألة ننقلها عنه فى كتابه «مقدمة فى أصول التفسير» فيما يلى: «قال شعبة بن الحجاج وغيره:

أقوال التابعين ليست حجة، فكيف تكون حجة فى التفسير؟، يعنى أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم- وهذا صحيح- أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب فى كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض، ولا على من بعدهم، ويرجع فى ذلك إلى لغة القرآن، أو السنّة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة فى ذلك [٣].

وهذا أيضا ما استقر عليه بعض الباحثين المعاصرين كالدكتور/ محمد حسين الذهبى فى كتابه «التفسير والمفسرون» حيث يقول: «والذى تميل إليه النفس هو أن قول التابعى فى التفسير لا يجب الأخذ به إلا إذا كان مما لا مجال للرأى فيه فإنه يؤخذ به حينئذ عند عدم الريبة، فإن ارتبنا فيه، بأن

---

(١) التفسير والمفسرون ١/ ١٢٩.

(٢) التفسير والمفسرون ١/ ١٢٩

(٣) مقدمة فى أصول التفسير لابن تيمية ص ٢٨

كان يأخذ من أهل الكتاب، فلنا أن نترك قوله ولا نعتمد عليه. أما إذا أجمع التابعون على رأى فإنه يجب علينا أن نأخذ به ولا نتعداه إلى غيره[1].

(١) التفسير والمفسرون ١/ ١٣٠.

المبحث الثامن

خصائص ومميزات التفسير فى عصر التابعين

يعتبر عصر التابعين- بالنسبة لعلم التفسير- مرحلة تالية لعصر الصحابة- رضوان الله عليهم- وامتدادا لخصائصه خاصة فى ناحيتين اثنتين:

الأولى: أن خاصية التلقى والرواية، وعدم التدوين التى كانت الطابع المميز للتفسير فى عصر الصحابة ظلت كما هى فى عصر التابعين، بفارق بسيط وهو أن التلقى والرواية لم تكن مجموعة فى إقليم واحد كما كان الشأن فى المدينة المنورة فى التفاف الصحابة حول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وإنما أصبح لكل إقليم تلاميذ يلتفون حول صحابى أو أصحاب نزحوا إلى هذا الإقليم والتف أهل الإقليم للأخذ عنه أو عنهم.

الثانية: النقل عن بعض الروايات الإسرائيلية فى التفسير، انتقلت هذه الخاصية أيضا من جيل الصحابة إلى جيل التابعين، ولكن أيضا بفارق أكبر. ذلك أن النقل عن أهل الكتاب فى عصر الصحابة كان محصورا للغاية، خاصة عند أبىّ بن كعب، وابن عباس، وابن مسعود- رضى الله عنهم- ولكن فيما لا يتعدى ما هو جاد فى ديننا من مسائل، أما عصر التابعين فقد كثرت الإسرائيليات بكثرة من أسلم منهم.

هاتان الخاصتان انتقلتا إلى عصر التابعين بالنسبة لمسائل التفسير. أما الخصائص المميزة لهذه «المرحلة الثانية» (عصر التابعين) فأهمها ما يلى:

١ - بداية ظهور المذاهب والفرق، والكلام حول بعض الآيات التى حملها بعض المفسرين من التابعين آراءه الخاصة. وذلك كمسائل الكلام حول القضاء والقدر الذى نسب إلى كل من الحسن البصرى، وقتادة بن دعامة السدوسى- يرحمها الله تعالى.

٢ - اتساع الخلاف بين التابعين فى مسائل التفسير بصورة واضحة ومتباعدة بينما لم يكن الخلاف بين الصحابة فى تفسير آيات كتاب الله تعالى شيئا ملموسا، أو محسوسا.

ومع هذا فإن هذه المسألة- أعنى مسألة الخلاف بين التابعين- لم تأخذ الفجوة العميقة التى سنراها فيما بعد، وإنما يمكن أن يقال «إنه خلاف» أى بالنسبة لما سبقهم من عصر الصحابة وإلا فما كان خلافهم ذا شأن كبير كما صار الحال عليه فيمن بعدهم، كما لم يكن خلافهم فى التفسير «كتفسير» وإنما كان خلافهم على حسب اختلاف رؤاهم فى مستجدات الوقائع التى لم تسبق من قبل فى عصر الصحابة، مع اختلاف البيئات التى انتقلوا إليها ووجدوا أنفسهم بإزائها، مما لم يألفوه فى جزيرة العرب- من عادات وتقاليد وطبائع كان ينبغى عليهم مواجهتها لما طلبت آراؤهم فيها.

فى حين أن اختلاف الصحابة لم يكن يتعدى ما عند واحد منهم من أسباب النزول، أو العلم بمفردات اللغة ما ليس عند الآخر، أو علم أحدهم بقراءة لا يعرفها غيره. كما لم يتعد خلافهم غير اختلاف العبادات حول مسمى متحد، أو أن يكون للفظ واحد عدة معان، فيحمله أحدهم على معنى، ويحمله الآخر على أحد المعانى الأخرى، أو أن يكون تعبيرهم عن المعانى بألفاظ متقاربة، وليست مترادفة- إلى غير ذلك من الأسباب التى تبدو اختلافا وهى ليست كذلك فى حقيقة الأمر .. غير أن الباحثين وضعوا لنا ما يشبه التقنين فى ما لو وقع خلاف صريح بين قولين من أقوال الصحابة يتعذر الجمع بينهما فى مسائل التفسير بإحدى الوسيلتين الآتيتين:

الأولى: إن تعارضت الأدلة تماما بحيث لا يمكن الجمع بينها فإن موقفنا من هذا التعارض أن نؤمن بمراد الله- عز وجل- ولا نلجأ إلى الميل لأحد القولين المتعارضين.

وتصبح المسألة بالنسبة لنا بمنزلة المجمل قبل أن يفصل، والمبهم قبل أن يبين، والعام قبل أن يخصص، والمتشابه قبل أن يفسر.

الثانية: يقدم قول ابن عباس- إن كان له فيها قول- على آراء غيره (وهذا رأى الزركشى) لبشارة النبى صلّى الله عليه وسلّم له .

التفسير فى بداية عصر التدوين:

من المعروف علميا أن عمر بن عبد العزيز خامس الراشدين- يرحمه الله تعالى- هو أول من اتخذ خطوة عملية نحو نقل الأمة الإسلامية كلها من عصر تلقى العلم رواية ومشافهة إلى مرحلة تسجيل العلم واستعمال القراطيس، وتدوين العلوم.

وأحسب أن ذلك القرار- فى ذلك الوقت- كان يعد انقلابا هائلا فى الحركة العلمية. ذلك أنه قد مرّ قرن كامل وحركة التعليم كلها قائمة على المشافهة وتلقى الرواية وذلك للمنع الصادر من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ونهيه عن كتابة شىء سوى القرآن الكريم.

ولقد أشبع الباحثون هذه المسألة بحثا، وعزوها إلى أن التحذير الوارد فيها كان لخوف إلباس كتاب الله ما ليس منه، فلما أمن اللبس ظهر الأمر، والإذن بالكتابة فى قوله صلّى الله عليه وسلّم: «قيّدوا العلم بالكتاب». وقوله: «اكتبوا فو الله ما صدر منى إلا حقا».

مما حدا ببعض الباحثين إلى محاولة التأكيد على أن الكتابة ظهرت فى عصر مبكر قبل عمر بن عبد العزيز [1].

وأيا ما كانت الآراء فإن الكلّ مجمع على أن «عصر التدوين» لم يأخذ السمة البارزة له والتى تستحق تطابق هذه التسمية إلا فى أواخر عهد الدولة الأموية، وأول قيام دولة العباسيين أى قبيل منتصف القرن الثانى الهجرى.

وفى هذا الوقت بدأت المرحلة الثالثة للتفسير بعد المرحلة الأولى فى عصر الصحابة، والمرحلة الثانية فى عصر التابعين وظهور مدارس التفسير فى مكة، والمدينة، والعراق، وبعض الباحثين ينظر إلى هذه المرحلة الثالثة نظرة ثنائية :

١- فيعتبر جيل الصحابة وجيل التابعين خطوة أولى فى التفسير تعتمد على تلقى العلم رواية.

---

(١) دلائل التوثيق البكر للسنة والحديث د/ امتياز أحمد ص ٢٦

٢ - ومرحلة ما بعد التابعين خطوة ثانية لتلقى العلم عن طريق التدوين والكتابة، وهذا التقسيم لا مشاحة فيه لأنه من قبيل اصطلاح العلماء [١]

فى بداية مرحلة التدوين لم يكن هناك ثمة علم غير علم «الحديث» وجلّ اهتمام المدونين كان مقتصرا على الحديث النبوى الشريف، مع تنوع أبواب الحديث فى كافة العلوم كالفقه، والتاريخ وغيرهما.

ولا شك أن علم التفسير كان أحد الأبواب الهامة التى أفرد لها المحدثون مكانا رحبا فى كتبهم، فأفردوا تحت هذا الباب مرويات الصحابة والتابعين فى تفسير آيات القرآن الكريم سواء ما كان منها مرفوعا إلى النبى صلّى الله عليه وسلّم، أو موقوفا على الصحابة، أو مقطوعا على التابعين.

وكان الطابع المميز لهذه الفترة فى بداية التدوين ما يلى:

١ - لم يفرد للتفسير تأليف خاص به منفصل عن علم الحديث ومستقل بنفسه.

٢ - لم يعرف أن أحدا قام بتفسير كل آيات القرآن الكريم سورة وآية.وإن كان «ما جمع ودوّن هو ما روي من الآثار فى آيات وسور متفرقة».

(١) التفسير والمفسرون ١/ ١٤٥.

الفصل الثانى

التجديد فى التفسير وآثار النزعة العقلانية الغربية على التفسير

المبحث الأول

التجديد فى التفسير

يعد التجديد مطلباً ملحاً من متطلبات الحياة ، وبابا من أبواب استمرارها ذلك أن التجديد يعني أن الحياة قائمة ومستمرة ، ومثلما هو التجديد في الحياة يكون التجديد في العلوم ، وفي هذا البحث قضية التجديد في علم التفسير ، وبيّن مِن خلال البحث أن التجديد في هذا العِلم كان مطلبا ملحاً عبر العصور الإسلامية كما وبيّن البحث ضرورة التجديد في مادة التفسير وطريقته ومناهجه وعرض الباحث آراء المدارس حول التجديد في تفسير القرآن الكريم مستدلاً بنماذج حيّة التي ترجع إلى أصحابها.

الحقيقة أن خللا ما وقع في علاقة النص بالواقع، ذلك أن أثر النص الذي صنع عزة المسلمين الأوائل ضعفت قوته ولم تعد فعاليته كما كانت في أول عهدها، وأصبح سؤال المحدثين يدور حول الدواعي التي باعدت بين المسلمين ومقررات الوحي، وهذا السؤال الواسع انطلق من حق مشروع في الاستفهام وانتهى إلى اتجاهات مختلفة في تفسير ضعف هذه الفعالية، كانت نتيجتها بروز تيارات مختلفة تدعو إلى التجديد في قراءة النص القرآني، تنطلق كلها من مفاهيم متمايزة للتجديد وتبني عليها اتجاهات متباينة للتجديد في التفسير.

حظي القرآن الكريم باهتمام لم يحظ به أي كتاب وضعي أو سماوي آخر وقد تجلى ذلك في مظهرين، الأول: أن الاعتناء به لم يقتصر على المؤمنين به وإنما شمل كذلك المتشككين والجاحدين، والثاني تواصله زمانيا ومكانيا؛ إذ

لم يعرف القرآن انقطاعا تاريخيا فمنذ لحظة نزوله وحتى يومنا هذا تواصلت الدراسات القرآنية واتخذ التصنيف القرآني أشكالا متعددة أهمها: التفاسير وكتابات إعراب القرآن ومعاني القرآن، وغريب القرآن وأحكام القرآن وغيرها، كما لم يعرف انقطاعا جغرافيا فقد أسهمت شتى بقاع العالم الإسلامي في الدراسات القرآنية حتى تلك البلدان القاصية عن مركز العالم الإسلامي كالهند وروسيا وشنقيط (موريتانيا).

ومنذ مطلع القرن التاسع عشر اتجه عدد من العلماء إلى وضع تفاسير قرآنية جديدة، ولهذا ما يفسره فقد أدرك هؤلاء مدى التخلف الذي أصاب أمتهم مع بدايات الاحتكاك بالغرب، وكان الإشكال المطروح هو إذا كان القرآن منهج حياة قادر على إصلاح الأنفس والمجتمعات فلماذا لم يعد قادرا على إصلاح واقعهم وتحقيق نهضتهم كما كان الحال في القرون الخالية؟ وتوصلوا إلى أن الخلل يكمن في منهج تعامل العقل المسلم مع القرآن وأنهم في حاجة إلى تفاسير جديدة واستنباط مناهج جديدة للتعامل معه قادرة على تلبية احتياجات العصر الحديث.

ومن هذه التفاسير تفسير "فتح القدير" لشيخ المجتهدين الإمام الشوكاني اليمني (ت: ١٨٤٣م) وهو يقع في ستة مجلدات وقد حاول مؤلفه أن يوفق بين منهجين من مناهج التفسير هما التفسير بالراوية (الأثر) وبين التفسير بالدراية (العقل)، وتفسير "روح المعاني" لعلامة العراق محمود الألوسي (ت: ١٨٥٤م) وهو تفسير ضخم يقع في ثلاثين جزءًا، وتفسير "فتح البيان في مقاصد القرآن" للعلامة الهندي محمد صديق خان (ت: ١٨٩٠م) وهو يقع في ١٠ مجلدات ولعله أول تفسير حديث يلتفت إلى المقاصد القرآنية،

وتفسير "محاسن التأويل" لجمال الدين القاسمي (ت: ١٩١٤م) المصلح الشامي المعروف وهو يقع في ١٧ مجلدا.

وهذه التفاسير على تنوعها لم تشكل اتجاها تفسيريا جديدًا، فقد ظلت متمسكة بالمناهج القديمة التي تراوحت بين التفسير بالأثر وبين التفسير بالرأي أو محاولة الجمع بينهما، والكثير منهما كان يعود إلى كتب التفاسير السابقة لينقح ما فيها من بدع أو اسرائيليات مضيفا إليها بعض الاستنباطات التي استخرجها بفكره. مدارس التجديد في التفسير ومع مطلع القرن العشرين طرأت متغيرات مهمة على حركة التفسير سواء على صعيد المناهج متمثلة في: صعود الاهتمام بالمفردة القرآنية (مفهوما واصطلاحا) أو ما بات يعرف باسم الدراسة المصطلحية للقرآن الكريم، وظهور (المقال التفسيري) الذي يُعنى بقضية معينة ويسعى إلى جمع الشواهد القرآنية المتعلقة بها وتأويلها أو على صعيد بروز مدارس تفسيرية جديدة كالتفسير العلمي و التفسير البياني ولعل أهمها التفسير الإصلاحي. – مدرسة المنار : جاء ميلاد التيار الإصلاحي مع تفسير المنار، وأول ما يستوقفنا تلك العبارة الافتتاحية التي وضعها رشيد رضا (ت: ١٩٣٥م) على صفحة الغلاف يُعرف فيها بطبيعة هذا التفسير المتفردة بقوله "هذا هو التفسير الوحيد، الجامع بين صحيح المأثور وصريح المعقول، الذي يبين حِكم التشريع وسنن الله في الإنسان، وكون القرآن هداية للبشر في كل زمان ومكان، ويوازن بين هدايته وما عليه المسلمون في هذا العصر وقد أعرضوا عنها، وما كان عليه سلفهم المعتصمون، مراعى فيه السهولة في التعبير، مجتنبا مزج الكلام باصطلاحات العلوم والفنون، بحيث يفهمه العامة، ولا يستغني عنه الخاصة"، ويبدو منها أن المنار لم يدع أنه يختط لنفسه منهجا جديدا وإنما

اعتمد المناهج التفسيرية المستقرة من تفسير بالأثر وتفسير بالعقل، وأنّ غاية تجديده هي المباحث التي سيتوسع فيها؛ والتي قصّر فيها المفسرون السابقون من بيان حِكَم التشريع والسنن الإلهية والتأكيد على الطابع الهدائي للقرآن، وفي استخدام لغة يسيرة يفهما العالِم والعامي. ويقر رضا في مقدمة تفسير المنار أن جوهر القرآن كونه كتاب هدى ونور وتزكية فالله سبحانه تعالى "لم ينزله قانونًا دنيويًا جافا كقوانين الحُكام، ولا كتابا طبيا لمداوة الأجسام، ولا تاريخا بشريا لبيان الأحداث والوقائع، ولا سفرًا فنيا لوجوه الكسب والمنافع "(١)وظاهر العبارة يوحي أنه لا يعد المحاولات التفسيرية التي تجعل من القرآن كتاب طبيعة أو طب أو قانون وسياسة تفسيرا، لأنه لا يتوقف عليها أمر الوحي.

وعلى الرغم من التأكيد النظري على المقصد الهدائي إلا أن رشيد رضا لم يقف عنده، فقد انشغل بضرورة تحقيق بعض المسائل الإصلاحية لذا كان كثيرا ما يخرج عن سياق التفسير ويقوم ببعض الاستطرادات الموسعة التي كانت تصل إلى عشرات الصفحات في بعض الأحيان(٢)وعلل ذلك بأنها مسائل "تشتد حاجة المسلمين إلى تحقيقها بما يثبتهم بهداية دينهم في هذا العصر، أو يقوي حجتهم على خصومهم من الكفار والمبتدعة، أو يحل بعض المشكلات التي أعيا حلها بما يطمئن به القلب وتسكن إليه النفس(٣)، وبهذا التعليل يكون رشيد رضا قد استعاد

---

(١) تفسير المنار ٤/١

(٢) مفهوم السنن الإلهية في الفكر الإسلامى لحازم زكريا ١٦/١

(٣) تفسير المنار ١٦/١

مركزية القرآن في إصلاح أوضاع الأمة، والتي كانت أقصيت في بعض الفترات لصالح أقوال المتكلمين والفقهاء. – مدرسة عبد الحميد الفراهي : لم تكن مدرسة المنار التفسيرية نبتا وحيدا وإنما ظهرت في الهند وفي ذات الوقت تقريبا مدرسة تفسيرية إصلاحية كان لها أثرها في تطور الدراسات التفسيرية، وهي مدرسة السيد عبد الحميد الفراهي (ت: ١٩٣٠م) الذي جمع بين الثقافة الإسلامية والثقافة المعاصرة بفضل اتقانه اللغتين العربية والانجليزية، وقد وضع الفراهي عددًا من المؤلفات القرآنية -جلها باللغة العربية- ومنها "تاريخ القرآن" الذي يتعلق بدفع الشبهات عن توثيق النص القرآني، و"دلائل النظام" الذي اختصه ببيان الحكمة من ترتيب سور وآيات القرآن و(إمعان في أقسام القرآن) الذي أفرده ببيان طبيعة القسم في القرآن وخصائصه كما أن له عددًا من المصنفات وثيقة الارتباط بمنهجية التفسير وتشكل في مجموعها إطارا نظريا متكاملا، وهي: "مفردات القرآن" الذي خصصه لدراسة المفردة القرآنية بشكل مستقل، و"أساليب القرآن" الذي خصصه لبحث وجوه الأساليب القرآنية ومواقع استعمالاتها وكشف من خلال على معرفة عميقة باللسان العربي، و "التكميل في أصول التأويل" الذي وضع فيه أصول فهم القرآن وضوابط تأويله إلى المعنى المراد المخصوص التي تبعد به عن وجوه الاحتمالات الظنية. ولم يكتف الفراهي بالتنظير وإنما انتقل إلى مرحلة التطبيق حين شرع في وضع تفسير للقرآن الكريم أسماه "نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" غير أنّ القدر لم يمهله إذ توفي قبل أن يتُمه تاركا لنا بعض السور التي فسرها وإنتاجه المعرفي القرآني الرصين الذي لم يلتفت إليه إلا نفر من الدارسين في مقدمتهم الدكتور حسين نصار في كتابه "القسم في القرآن". وبالجملة كرس هؤلاء

العلماء جهودهم لإنتاج تفاسير جديدة للقرآن تراعي احتياجات العصر وتجيب عن تساؤلاته، وقد خلف هؤلاء ورائهم انتاجا تفسيريا رصينا لم يقطع مع المناهج القديمة وإنما أضاف إليها مستفيدا من معارف العصر.

المبحث الثانى
تاريخ التجديد في التفسير

إذا كانت هذه الدراسة قد عنيت بضرورة التجديد في التفسير والتطوير في تناوله وفق ضوابط ساذكرها لاحقا، فليس معنى ذلك أن المتأخرين قد أحدثوا في التفسير أشياء جديدة كثيرة، ولا يعني كذلك أن المتقدمين لم يكن لهم أي نوع من التجديد، بل الذي يطالع كتب التفسير يجد أن التجديد قد برز برورا واضحا في ثنايا التفسير، بداية من القرن الثاني وانتهاء بالألوسي رحمه الله.

القرن الثاني، برز فيه مقاتل بن سليمان البلخي المتوفى سنة ١٥٠هـ، إذ ألف تفسيرا شاملا للقرآن، وهو على ما يبدو أول كتاب تفسير كامل وصل إلينا وبغض النظر عما في هذا التفسير من آراء إلا أنه يمثل حلقة جديدة في التفسير لم يكن لها سابق، وهذا نوع من التجديد .

القرن الثالث: برز فيه من أعلام التفسير واللغة الفراء المتوفى سنة٢٠٧هـ، وأبو عبيدة المتوفى سنة ٢٠٩هـ، وعبدالرزاق الصنعاني المتوفى سنة ٢١١هـ والذي ذكر أقاويل السلف في التفسير دون أن يستوعبها واقتصر على ذلك، والأخفش المتوفى سنة ٢١٠هـ، وهؤلاء الثلاثة قد أحدثوا في التفسير نقلة جديدة لم يسبقوا إليها، حيث بدأت بذور الدراسات النحوية في التفسير تنمو وبتسارع شديد على أيدي هؤلاء الثلاثة، مما يعد نقلة جديدة في التفسير، وهذا لا شك نوع من التجديد .

القرن الرابع، برز فيه من المفسرين الإمام الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ، والزجاج المتوفي سنة ٣١١هـ، بما أبدع في جمع أقوال اللغويين والمفسرين

في التفسير، والنحاس المتوفى سنة ٣٣٨هـ، والجصاص الحنفي المتوفى سنة ٣٧٠هـ والسمرقندي أبو الليث المتوفى سنة ٣٧٣هـ، وكل واحد من هؤلاء قد أحدث نقلة جديدة في التفسير.

فأما الطبري فقد جمع روايات التفسير بأسانيدها ووازن بينها وأخذ يرجح ما كان راجا، ويضيف ما يراه لازما، ويعد الطبري بحق صاحب فتح جديد في التفسير، وأما النحاس فأضاف إلى العصر الذي هو فيه ما ذكره من أقاويل النحاة في الإعراب والترجيح بينها، وأما الجصاص فأحدث نقلة نوعية في هذا العصر، إذ قصر التفسير على آيات الأحكام وحاول جاهدا إبراز مذهب الحنفية وتقوية أدلته وبراهينه من خلال التفسير، وأما السمرقندي فكان من أسلوب نهجه نقل ما تقدمه من الأقاويل مع حذف أسانيدها على خلاف ما جرى عند الإمام الطبري رحمه الله تعالى

القرن الخامس: برز فيه الإمام القشيري الصوفي المتوفى سنة ٤٦٠هـ الذي أحدث نقلة نوعية في التفسير ممثلا ذلك بكتابه لطائف الإشارات، حيث فسر القرآن الكريم كاملا على منهاج الاعتدال الصوفي.

القرن السادس: برز فيه من المفسرين الكيا الهراسي الشافعي المتوفى سنة ٥٠٤هـ والذي فسر آيات الأحكام على المذهب الشافعي، والزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨هـ الذي أبدع في التفسير البلاغي للقرآن الكريم، وابن عطية المتوفى سنة ٥٤٣هـ والذي أعاد الاعتبار لأقاويل السلف في التفسير بعد أن كادت تتيه في أتون الأقاويل الأخرى، ثم جاء ابن العربي المالكي المتوفى سنة ٥٤٣هـ والذي فسر آيات الأحكام على مذهب الإمام مالك،

القرن السابع: برز فيه الرازي المتوفى سنة ٦٠٦هـ والذي أحدث نقلة نوعية في التفسير بما جمعه من مستحدثات العلوم في زمانه وخاصة العلمية منها،

مما له علاقة بالتفسير، وابن جزي المالكي المتوفى سنة ٦٢٠هـ العالم الشهيد الذي قدم للناس تفسيرا مختصرا مفيدا، والقرطبي المتوفى سنة ٩٧١هـ والذي فسر القرآن كله واهتم بإبراز آيات الأحكام والخلاف فيها، فكان بحق كتابا موسوعيا مباركا سهل العبارة .

القرن الثامن: برز فيه أبو حيان الأندلسي المتوفي سنة ٧٤٥هـ، والذي ملأ تفسيره للقرآن بالتفريقات اللغوية والنحوية، حتى عد الإمام الأوحد بين المفسرين في ذلك، وكذا ما أضافه من ردود على الزمخشري في التفسير، ثم جاء تلميذه السمين الحلبي المتوفى سنة ٧٥٩هـ، والذي أضاف إضافة نوعية إلى التفسير بوقوفه حكما بين شيخه أبي حيان والذين كان يعترض عليهم في تفسيره وخاصة الزمخشري وابن عطية.

القرن التاسع: برز فيه الفيروزآبادي المتوفى سنة ٨١٧هـ بما أحدثه من نقله نوعية في التأليف في التفسير في كتابه «بصائر ذوي التمييز في الطائف الكتاب العزيز

القرن العاشر: برز فيه السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ بكتابه «الدر المنثور في التفسير بالمأثور»، حيث يعد هذا الكتاب أوسع كتاب ضم آراء المتقدمين من السلف في التفسير، وبهذا الكتاب حقق السيوطي نقلة نوعية في التفسير.
القرن الحادي عشر: لم أطلع فيه على مبرزين في التفسير

القرن الثاني عشر: برز الألوسي المتوفي سنة ١٢٧٠هـ بكتابه «روح المعاني»، حيث يعد هذا التفسير أخر حلقة من حلقات التفسير القديم، وصاحبه آخر من أدرك الخلافات الكلامية التي برزت في التفسير، وأخذت منه حيزا كبيرا.

تخليةٌ وتنقيةٌ لكتبِ التفسير من الدخيل، بالتمحيص والتدقيق، فكم شغل الدخيلُ عن مقاصد القرآن وأهدافه، وكم صرف القارئَ عن الفهم الصحيح؛ لذا فإن من معالم التجديد فى التفسير: تنقيتُه من انتحال الجاهلين، وتأويل المغالين، وشبهات المبطلين، تنقيته من الأخطاء التى وقع فيها بعض من خاض غمار التفسير دون مراعاة لقواعده وأصوله فنتج عن ذلك الخطأ.

فالتجديد لا يعنى التخلى عن الثوابت والأصول أو تبديلها بغيرها بل يعنى التحرر من الأفكار الخاطئة والمفاهيم المنحرفة التي ترسبت لدى العوام حتى التبس عليهم الحق والباطل.

يعنى التجديد إعادة صياغة الشخصية المسلمة وفق منهج القرآن الكريم بعيدا عن القوالب الغريبة عن ديننا وتراثنا. ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾[البقرة: ١٣٨].

يعنى التجديد إبراز خصائص الأمة المسلمة وفضائلها على الأمم ليعود لها تميُّزها وسبقُها وصدراتها. ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[آل عمران: ١١٠، ١١١].

"إن أي وثبة حقيقية تتطلع لها الأمة أو يرنو لها المجتمع لا تتم إلا بباعث روحي عميق يرجع معه الناس إلى حقائق الدين الخالصة يستلهمونها ويزيحون عنها كدر الانحلال".

التجديد يعني أن ننفض غبار الجمود والتقليد، هكذا نفهم التجديد: عملية استلهام معالم نهضة تراثنا العظيم وتجليته وتنقيته من الشوائب وكل ما يعيق تقدم الأمة، لا أن نلقي به كله جانبا ونتنكر له بحجة وجود نقاط سلبية بين جنباته.[١]

[١] للمزيد انظر :التجديد فى التفسير ل أ.د أحمد الشرقاوى المجلة الأردنية فى الدراسات الإسلامية مج (١٢) ع (٣) ٢٠١٦

المبحث الثالث

التجديد في المناهج

من معالم التجديد: التجديد في المناهج وذلك على النحو التالي: **التجديد في طريقة العرض**: فلا يعني التجديدُ الانسلاخ من القديم والتخلي عنه، فليس في ديننا ما يقال عنه قديم، بل ديننا يجمع بين الأصالة والمعاصرة، وكتاب الله كلما طال المدى غضٌّ، يتَّسم بمعايشته لواقعنا، ومواكبته لعصرنا، كأنه حديث عهد بالنزول.

فلا يمكنُ بأيِّ حال من الأحوال أن نستغنيَ عن هذا التراثِ الزاخرِ، ونزهدَ في هذا الإرثِ العظيمِ الذي تركه لنا السابقون من علمائِنا وأئمتِنا، كيف نتنكَّر لمن سلَّمونا لواءَ هذا الدينِ وحمَّلونا أمانَتَهُ، وورِثنا عنهم الأمجادَ والبطولات؟ وهل هناك علمٌ من العلوم يتخلَّى أصحابهُ عن أصوله الثابتة، ويتنكرون لجذوره الأصيلة؟ إن اتجاهات السابقين في التفسير هي ركائزنا الأساسية لفهم كتاب الله تعالى، وهي المنطلق نحو فهم كتاب الله تعالى وتنزيله على الواقع والانتفاع بهديه.

إن التجديد في التفسير: يعني توثيق الصلة بمقاصد القرآن وأهدافه، توثيق الصلة بمصادر التفسير الأصيلة، وينابيعه الصافية، ومناهله العذبة.

التجديد في التفسير: تنقيته مما علُقَ به من شوائب، وما خالطه من كدر عبر مسيرته الطويلة ومراحله العديدة فلقد ولع بعض المفسرين بالإسرائيليات ونقلوها لتفاسيرهم، سواء ما كان مخالفا لشرعنا أو ما لم يرد ما يخالفه، مما دفع بعض الباحثين إلى تنقية هذه الكتب من الدخيل بشتى أنواعه.

التجديد في التفسير: معايشة المفسر لكتاب الله تعالى، ومتابعته لواقع الأمة، وتجريد القلم لتبليغ رسالة الله تعالى بأسلوبٍ واضحٍ يسيرٍ، يخالطُ القلوبَ ويخاطبُ العقولَ ويسري إلى الوجدان، ويلامسُ الواقعُ.

التجديد في مناهج التفسير، توجيهها لمعالجة قضايانا وحلِّ أزماتنا، مع السعي الدائم للابتكار في العرض والكتابة.

التجديد في الدراسات الموضوعية؛ لإبراز الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم، ووحدة الموضوع في القرآن، كذلك إبراز الوحدة الموضوعية والبناء المحكم والنسيج الفريد للسورة القرآنية، فضلاً عن الدراسة الموضوعية للمفردة القرآنية؛ لبيان دقَّة التعبير القرآني، وبيان الهداية القرآنية، وضبط وتحرير المصطلحات، وحسم الكثير من مسائل الخلاف بين العلماء.

التجديد في التفسير التحليلي؛ وذلك بتنقيته من شوائب الإسرائيليات، وتوجيهه إلى فهم المعنى دون الإغراق والإيغال في ما لا صلة له بالتفسير، مع الجمع بين أقوال المفسرين؛ إذا أمكن ذلك، أو الترجيح بين الأقوال المتعارضة.

التجديد في التفسير المقارن: بتوظيفه في تقويم كتب التفسير والمقارنة بين مناهج المفسرين لانتقاء أفضل مناهج التفسير.

التجديد في التفسير الإجمالي: وذلك بتيسيره لعامة القراء، مع حسن الصياغة وجمال الأسلوب ووضوحه، واستيعاب أقوال المفسرين، واستخلاص اللطائف والفوائد من الآيات، في ضوء تدبُّرٍ عميقٍ ودراسةٍ وافيةٍ للآيات، مع الاكتفاء بالصحيح، والاعتناء بسلاسة العرض وعذوبة الكلمات، وصلاحيته للترجمة إلى اللغات الأخرى لينتفع به الناطقون بها.

التجديد في دراسة آيات العقيدة: بعرضها الواضح البعيد عن تفريعات علماء الكلام، وتعقيدات الفلاسفة، مع الاستفادة من معطيات العصر وردِّ الشبهات وترسيخ المعاني وربطها بالواقع وإبراز الجانب العملي، والتركيز على أثر العقيدة على السلوك.

التجديد في دراسة آيات الأحكام: بحسن العرض مع إبراز الحكمة التشريعية، ودفع الشبهات، والبعد عن التعصب المذهبي، وتحقيق القول في مسائل الخلاف، وتحرير المصطلحات الفقهية وتأصيلها، واستنباط الأحكام وتقريرها [1]

[1] للمزيد انظر :التجديد فى التفسير ل أ.د أحمد الشرقاوى المجلة الأردنية فى الدراسات الإسلامية مج (١٢) ع (٣) ٢٠١٦

المبحث الرابع

من معالم التجديد في التفسير[1]

المطلب الأول

مراعاة مقاصد القرآن الكريم فعلى المفسر

أن يحددَ أهدافَهُ من كتابةِ التفسيرِ قبل أن يَشْرُعَ فيه وينبغي أن تكون تلك الأهدافُ مواكبةً كما ذكرنا لأهدافِ القرآنِ ومقاصِدِهِ، ولقدْ فَطِنَ لذلك بعضُ المفسرينَ.

ولقد أشار بعض المفسرين إلى ضرورة مراعاة مقاصد القرآن وجعلِها زادا ونبراسا: يقول الطاهر ابن عاشور في مقدمة تفسيره: "... فمرادُ اللهِ مِنْ كِتَابِهِ هُوَ بيانُ تَصَارِيفِ مَا يَرْجِعُ إِلَى حِفْظِ مَقَاصِدِ الدينِ وقد أُودِعَ ذلك في ألفاظِ القرآنِ التي خاطَبَنَا بها خِطَابًا بَيِّنًا وَتَعَبَّدَنَا بِمَعْرِفَةِ مُرادِهِ والاطلاعِ ... ثم ذكر –رحمه الله– ثمانية مقاصد رئيسة لنزول القرآن وهي: الأول: إصلاح الاعتقاد وتعليم العقد الصحيح. وهذا أعظم سبب لإصلاح الخلق: والثاني: تهذيب الأخلاق، والثالث: التشريع وهو الأحكام خاصة وعامة ...، والرابع: سياسة الأمة: وهو باب عظيم في القرآن القصد منه صلاح الأمة وحفظ نظامها، والخامس: القصص وأخبار الأمم السالفة للتأسِّي بصالح أحوالهم ...، السادس: التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين وما يؤهلهم إلى تلقي الشريعة ونشرها وذلك علم الشرائع وعلم الأخبار ...، السابع: المواعظ

[1] للمزيد انظر :التجديد فى التفسير ل أ.د أحمد الشرقاوى المجلة الأردنية فى الدراسات الإسلامية مج (١٢) ع (٣) ٢٠١٦

والإنذار والتحذير والتبشير وهذا يجمع جميع آيات الوعد والوعيد وكذلك المحاجة والمجادلة للمعاندين وهذا باب الترغيب والترهيب، الثامن: الإعجاز بالقرآن ليكون..."(i).

ويقول سيد قطب: "إنما جاء القرآنُ ليكون منهاجَ حياةٍ، منهاجًا إلهيًّا خالصًا ... إن هَدَفَنَا الأولَ: أن نعرفَ: ماذا يريدُ منا القرآنُ أن نعملَ؟ ما هو التصورُ الكليُّ الذي يريدُ منا أن نتصورَ؟ كيف يريدُ القرآنُ أن يكونَ شعورُنَا بالله؟ كيف يريدُ أن تكونَ أخلاقُنا وأوضاعُنا ونظامُنا الواقعيُّ في الحياةِ؟"(ii).

مثال ذلك: ما ذكره سعيد حوى –رحمه الله– في مقدمة تفسيره يقول: في المقدمة: تحت عنوان (بعض احتياجات عصرِنَا بالنسبةِ للقرآن) جملةٌ من الأهدافِ التي قَصَدَهَا من التفسير. وهذه الأهدافُ هي:

١- الحديثُ عن الوحدةِ الموضوعية للقرآن الكريم حديثا موسَّعًا؛ يعين على فهم القرآن ويبرز جانبا هاما من جوانب إعجاز النظم القرآني، كما يردُّ من خلال ذلك على شبهات أعداء الإسلام حول ترتيب القرآن ووحدته الموضوعية.
٢- الإجابةُ على كثير من التساؤلات التي تتردد في هذا العصرِ، والاستفادةُ مِنَ العُلُوم العصرية، وبيانُ موقفِ القرآنِ منها.
٣- الإجابةُ على كثيرٍ مِنَ الشُّبَهِ والاعتراضاتِ التي طَرَحَهَا أعداءُ الإسلام وتولى كِبَرَهَا أتباعُهُم ممن ينتسبون إليه: حولَ إِمْكَانِيةِ الحياةِ في ظلالِ القرآنِ، وتطبيقِهِ في شتى مجالاتِ الحياةِ.[١]

[١] للمزيد انظر :التجديد فى التفسير ل أ.د أحمد الشرقاوى المجلة الأردنية فى الدراسات الإسلامية مج (١٢) ع (٣) ٢٠١٦

٤- تكوينُ الشخصيَّةِ المسلمةِ التي تتحققُ بمعاني القرآن، وتترجِمُهُ إلى واقعٍ عمليٍّ، وإذا وُجِدَ الفردُ المسلمُ على هذا الأساسِ فسوف توجَدُ الأُمَّةُ المسلمةُ التي تستحقُّ النصرَ والتمكينَ، وتُؤَدِّي دورَهَا في هذا الوجودِ.

٥- هذا إلى جانب ضرورةِ التيسيرِ على القارئِ المسلِمِ، واستخلاصِ الفوائدِ من أمهاتِ كتبِ التفسيرِ لأنَّ المسلمَ المعاصرَ يُعْجِبُهُ أن يأخذَ خلاصَةَ التحقيقِ بأدِلَّتِهِ المباشِرَةِ، أَمَّا التحقيقُ نفسُهُ فَيُمْكِنُ للمتخصِّصِينَ أن يرجِعُوا إِلَيهِ في مواضِعِهِ.

٦- عرضُ العقيدةِ الإسلاميةِ عرضًا صحيحًا بعيدًا عن تأويلِ الجاهلينَ وانتحالِ المبطلينَ، وخاليا من المشكلاتِ الكلاميةِ والتعقيدات الفلسفيةِ مع الردِّ على الملِلِ والنِّحَلِ المخالفةِ للإسلامِ، والردِّ على المذاهبِ المنحرفةِ المخالفةِ لمذهبِ أهلِ السنةِ والجماعةِ ....

المطلب الثاني: تنزيل الآيات على الواقع

ذلك أن القرآنَ الكريمَ يتواكبُ مع كلِّ عصرٍ وَمِصْرٍ ويتناسبُ مَعَ كُلِّ جيلٍ وقبيلٍ.

فمن سمات المنهج القرآني: الواقعية: من حيث عرضِهِ للعقيدةِ التي يتسلحُ بها المؤمنُ في مواجهةِ واقعِهِ. الواقعية: في كل ما جاء به من تشريعات تناسبُ الواقعَ، وتعالجُ النوازلَ والوقائعَ.

الواقعية: في قصصه وأمثاله التي نستلهمُ منها العبرَ، ونستمدُّ المواعظَ، ونستخلصُ الفوائدَ.

الواقعية: في حِكَمِهِ ووصاياهُ التي تَشْحَذُ الهِمَمَ وتسمُو بالأرواحِ وتُقِيمُ الحياةَ وتنهضُ بالمجتمعاتِ. الواقعية: في حديثه عن حقيقةِ الإنسانِ وما يتعلقُ به من حيثُ المبدأُ والمعاشُ والمعادُ، وما أَوْدَعَ اللهُ فيه من غرائزَ وعواطفَ.

حيث يُقَدِّمُ لنا نبيُّنا ﷺ تفسيرًا واقعيًّا للقرآن الكريم: من خلالِ أقوالِهِ وأفعالِهِ وحِلِّهِ وتِرْحَالِهِ، وَحَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ وإيمَاءَاتِهِ، وأحاسيسِهِ وانفعالاتِهِ، كان خُلُقُهُ القرآنَ في تعاملاته اليوميَّة مع أهلِ بيتِهِ وجيرانِهِ وخِلَّانِهِ، في هديِهِ وفي سُوقِهِ وفي طريقِهِ، في سِلْمِهِ وَحَرْبِهِ، كان نبيُّنَا ﷺ مثلا أعلى للمنهجِ القرآنيِّ الذي صاغَ منه أسلوبًا رائعًا للحياة. وتنزيلُ الآياتِ على الواقعِ يحتاجُ إلى جانبِ معرفةِ أصولِ التفسيرِ وقواعِدِهِ: الدرايةُ بالواقعِ المعاصِرِ ومتابعَةِ أحداثِهِ ومعايشَةِ هُمُومِهِ، وهكذا ينبغي على المفسِّر أن يُولِيَ اهتمامَهُ للقضايا الحيويَّة والنقاطِ الساخنة في واقعِ أمتنا، وأن يُعنَى الباحثون في التفسير الموضوعي بما يُلامِسُ واقعنا.

المطلب الثالث: النظرة الكلية الشاملة:

لابدَّ للمفسر أن تكون له نظرة شاملة للقرآن الكريم، من خلال مدارسته للقرآن وحسن تدبره، واستحضار الآيات المتعلقة بموضوع واحد، وإلى جانب هذه النظرة الكلية الشاملة للقرآن الكريم بوجه عام، كذلك فعليه أن يتأمل في كلِّ سورة ويتدبر في مقاصدها وأهدافها قبل أن يشرع في تفسيرها، مما يمنحه فكرة شاملة للسورة تعينه على تقسيمها وتحديد ملامحها ومعالمها ومحورها الذي تدور حوله والوقوف على سياق الآيات والقدرة على الاستنباط. يقول

الأستاذ الدكتور لطفي الصباغ: "لابد من أن تتوافر لمبتغي التفسير دراسةٌ شاملةٌ مفصلة ونظرة عامة لجوانب هذا الكتاب الكريم، وهذه القاعدة منطلق في فهم أي نصٍّ فهما صحيحا، فلا يجوز أن نطيلَ الوقوفَ أمام جملة من النص، ونستنبط منها أحكاما ونغض بصرنا ونغلق فكرنا عن الجمل الأخرى"(iii)(iv).

وفي هذا المعنى يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودي –رحمه الله–: "والذين يرغبون في دراسته على نهجٍ قويم عليهم أن يستوعبوا قراءته في ختمتين لمجرد أن يلمع أمامهم نظامه للعقيدة ومنهجه العام ... كما عليهم أن يحاولوا خلال الدراسة
الأولية تحقيق النظرة الإجمالية في مشاهد القرآن عامة"(V).

المطلب الرابع: إبراز جوانب الإعجاز العلمي مع مراعاة ضوابط البحث فيه:

القرآنُ الكريمُ هو الدستورُ الخالدُ والعطاءُ المتجددُ، والحجَّةُ الباهِرَةُ، والمأدُبَةُ الربانيةُ، والمعجزةُ الباقية.

فالقرآن الكريم كتابُ اللهِ المعجزِ في روعةِ أساليبِهِ ورفعَةِ مقاصِدِهِ. في تشريعاتِهِ الحكيمةِ وقَصَصِهِ وأمثالِهِ.في إنبائه عن الأمور الغيبية. في هيمنته على الكتب السابقة. في تناسُبِهِ وتناسقه وخلوه من التناقض والاختلاف.

لكنَّ من الملاحظاتِ على بعضِ من يتصدى لإبراز الإعجاز العلمي أو للتفسير العلمي(vi):

- الخلط بين النظريات محلِّ البحثِ والدراسة وبين الحقائق العلمية الثابتة، فتراهم يُفسِّرون القرآن بالنظرياتِ، مع كونِهَا عرضةً للتغييرِ أو التعديلِ.
- التكلُّفُ في تحميلِ النصوصِ ما لا تحتمله حرصًا على ربطها باكتشافِ علميٍّ.
- تحليلُ المعجزة أو الكرامة تحليلا علميا يتوافق مع نواميس الكون علما بأن المعجزة أمر خارق للعادة: بمعنى أنها لا تخضع لقوانين الحياة ومن ذلك: دعوى أن نقل عرش بلقيس كان بتحويل المادة إلى طاقة ثم تحويل الطاقة إلى مادة(vii). ومثلُ قميصِ يوسفَ وارتدادِ بصرِ يعقوبَ عليهما السلام، قيل لأن القميص كان فيه أثر عرق وأن في العرق مادة يمكن أن تعالج بعض حالات فقد البصر...
- لا يمكن تعليلُ الخوارق أو الغيبيات تعليلا ماديا علميا، وربما ساعد العلم في تقريب بعض الأمور الغيبية التي وردت في القرآن إلى الأذهان.

- لا يصحُّ أن نجعل القرآنَ تبعا والعلمَ التجريبيَّ أصلا وحَكما.
- إذا وقع التعارض بين دلالة قطعية للنص وبين نظرية علمية رفضت هذه النظرية لأن النص وحي من الذي أحاط بكل شيء علماً، وإذا وقع التوافق بينهما كان النص دليلاً على صحة تلك النظرية، وإذا كان النص ظنياً والحقيقة العلمية قطعية يؤول النص بها.
- لا يعني التفسير العلمي أن ننقضَ ما قرره المتقدمون من معانٍ واستنباطاتٍ لا تخالف الحقائقَ العلميةَ الثابتةَ؛ فالقرآن الكريم خطابُ الله تعالى وحجتُه البالغة لكلِّ العصور، وحمال وجوه، وقد فهم كلٌّ مفسرٍ بقدر ثقافة عصره وما حضره من علمٍ وفهمٍ، ثم جاء العلم الحديث فكشف عن وجوهٍ ومعانٍ لم يدركها السابقون، وكلما تقدم العلمُ التجريبي كلما تجلت لنا وجوهٌ جديدةٌ من وجوهِ الإعجازِ القرآنيِّ.

المطلب الخامس: بيان الحكمة التشريعية:

عُني المفسرون منذ بداية العصر الحديث وما واكبه من لقاء الحضارات والاتصال بالغرب بإبراز الحِكم التشريعية وخصائص التشريع القرآني لبيان سماحة الإسلام وعظمته ويسره وإنصافه وصلاحه لكل العصور ومن هؤلاء رشيد رضا وشيخه محمد عبده والقاسمي في محاسن التأويل، وشلتوت في تفسير العشر أجزاء الأول والمراغي وأبي زهرة كما في زهرة التفاسير وسيد قطب في الظلال وسعيد حوى في الأساس وعبد الرحمن الدوسري في تفسيره الموسوم بـ (صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم)، وكما فعل محمد علي الصابوني في روائع البيان في تفسير آيات الأحكام، وغيرهم.

المطلب السادس: الرد على الشبهات التي أثارها أعداء الإسلام:

كان من اهتمامات المفسرين المعاصرين كرشيد رضا وشلتوت والمراغي وسيد قطب وأبي زهرة وسعيد حوى والدوسري وعبد الرحمن حبنكة وكما فعل محمد علي الصابوني في روائع البيان في تفسير آيات الأحكام، وغيرهم الرد على شبهات أعداء الإسلام حول القرآن تاريخاً ومنهاجاً، حيث أثاروا الشبهات حول نزوله ومصدره كما أثاروها حول ما تضمنه من معان ومقاصد، فكانت عناية المفسرين برد الشبهات.

المطلب السابع: مراعاةُ سماتِ الخطابِ القرآنيِّ وَتَنَوُّعِهِ:

فالقرآنُ خطابُ اللهِ ﷻ لجميعِ الناسِ على اختلافِ مدراكهم وَتَنَوُّعِ ثَقَافَاتِهِمُ، وتفاوُتِ أعمارِهم، واختلافِ ألسنتِهِمْ وأجناسِهِمْ، خطابٌ للعربيِّ والعجميِّ، وللقارئ والأميِّ والذكر والأنثى؛ ولقد فَطِنَ سلفُنا الصالحُ إلى ذلك، فهذه أمُّ سلمةَ –رضي الله عنها– لما سمعت النبيَّ ﷺ ينادي قائلا: "يا أيها الناسُ" والجارية تمشِّطُهُا قالت: اسْتَأْخِرِي عَنِّي، فقَالَتْ لها الجاريةُ: إِنّمَا دَعَا الرِّجَالَ وَلَمْ يَدْعُ النِّسَاءَ، فَقالت: إِنِّي مِنَ النَّاسِ(viii).

والقرآن الكريم يخالط القلب ويخاطب الوجدان وينادي الفطرة، ويناجي النفس، ويُلامِسُ الحسَّ، هو حديث الروح، وحوارُ العقلِ، وهذا التنوعُ يستوعبُ جميعَ العقول والمدارِك، ويصلُ إلى القلوبِ، ويؤثر في النفوسِ، ويناسب جميع الطبائع.

ومن واجب المفسِّر مراعاة هذا التنوع في الخطاب فلا يغفل عن جانبٍ منه، بل يجعل تفسيره جامعا لكل هذه الأساليب الدعوية القرآنية التي تستوعب جميع المخاطبين. والخطابُ القرآنيُّ، يتناسبُ مَعَ كُلِّ عَصْرٍ وَمِصْرٍ ويتواكَبُ مَعَ كُلِّ جِيلٍ وَقَبِيلٍ، بَلْ وَيَسْبِقُ العُصُورَ ويتجاوَزُ الدُّهُورَ، فَهُوَ رِسَالَةُ اللهِ الخالدةِ، وآياتُهُ المتجدِّدَةُ، ومأدُبَتُهُ العامِرَةُ، وَحُجَّتُهُ البَالِغَةُ.

المطلب الثامن: التيسير:

تختلف أساليب التعبير من عصرٍ إلى عصر ويتجلى هذا واضحا عند المقارنة بين نتاج الأدباء في عصرين مختلفين كالعصر الجاهلي مثلا والعصر العباسي أو الأدب الأندلسي والأدب في العصر المملوكي، لذا لا بد من مراعاةِ لغةِ العصرِ الذي يعيشُهُ المفسرُ: "فيعبِّرُ المفسرُ بأسلوبِ عصرِهِ فلا يأتي بغريبِ الألفاظِ ولا يتكلَّفُ العبارات ولا يُمْعِنُ في عَوِيصِ المعاني".

لكن هذا لا يعني أن يهبط المفسرُ بأسلوبِهِ إلى مستوى العاميةِ وهي اللهجاتُ الدارجةُ في هذا العصر؛ وبذلك يعرض عن بلاغة القرآن وجمالِ العربية، كما نرى في بعض المتصدِّرين للتفسير سِيَّما في الإذاعات المسموعة والمرئية ممن يهبِطون بأسلوبهم إلى الحضيض، ولكن أعني أن يتخذ مسلكا واضحا ومنهجا ثابتا، فلا يتكلف في تنميق العبارات: "لا يعلُو حديثُهُ عن دَرَكِ العامَّةِ ولا يهبط إلى وَضِيعِ القولِ عند العلماءِ فليحاولْ جُهْدَهُ في التعبيرِ بحيث إذا سمعَهُ غيرُ المتخصصِ أدركَ أبعادَهُ وشدَّهُ أسلوبُهُ، وإذا سمِعَهُ العالَمُ شدَّه حسنُ التعبير وطلاوةُ الأسلوبِ"(ix).

وهي مسألة ترجع إلى فنِّ التذوق وحسن التقدير، ومعادلةٌ تعتمد على دقة الموازنة، والله المستعان.

ولا يعني التيسيرُ في التفسيرِ: الإيجازُ؛ فكم من تفاسيرَ وجيزةٍ يصعبُ فهمُهَا إلا للمتخصِّصِ مثلَ: "أنوار التنزيل وأسرار التأويل" للبيضاوي و"تفسير الجلالين" لجلال الدين المحلي والسيوطي، ولهما كثيرٌ من الحواشي.

المطلب التاسع: الجمع بين الأصالة والتجديد:

الأصالةُ في التفسير: هي الركيزةُ الأساسيةُ والدِّعَامَةُ التأسيسية لهذا البناءِ، وهي الجذورُ الممتدَّةُ العميقةُ لتلك الشجرةِ الوارفةِ الوريقة، المتجددةُ العطاءُ، المتشعبةُ الأفنانُ المتعددةُ الألوانُ:

أصالةٌ في الأصولِ: وذلك بالرجوعِ إلى المصادرِ الأصيلةِ في التفسير: تفسيرُ القرآنِ بالقرآنِ، فالقرآنُ الكريمُ يفسِّر بعضُهُ بعضًا، وهذا يؤكدُ أهميةَ النظرةِ الكليَّة الشاملة والموضوعية لآيات القرآن، فحين نجمعُ الآياتِ في الموضوعِ الواحدِ تتولَّدُ لدينا كثيرٌ من المعاني والاستنباطاتِ، هذا فضلا عن تفسيرِ القرآنِ بالسنةِ النبوية فهي الشارحة والمبينةُ والمقررة لأحكامه ومعانيه ومقاصده ومراميه وقصصه وأمثاله، ومن المصادر الأصيلة أيضا تفسير القرآن بأقوال الصحابة وقد سبق الإشارة إلى أهمية تفسيرهم وقيمته العلمية، وكذلك الرجوع إلى تفسير التابعين فهم تلامذة الصحابة وحاملو علمهم وفقههم، وقد اجتهدوا بين أيديهم فأقروهم على اجتهادهم.

الأصالة في المنهج: الذي يرتكز على تفسير السلف ولا يتوقف عنده وإنما يجعله منطلقاً.

الأصالة في المصادر: بالرجوع إلى كتب التفسير بالمأثور والرأي فلا يمكن أن يفسر القرآن بعيدا عما كتبه المتقدمون من هذا التراث الذاخر الذي أثرى مكتبة التفسير وعلوم القرآن ومن شمولية في المنهج أن يرجع إلى كل ما يتيسرُ له الرجوعُ إليه من كتب التفسير.

أما التجديد في التفسير: فهو أمرٌ ضروريٌّ؛ لمواكبةِ رُوحِ العصرِ ومعالجةِ قضاياه وتقديمِ الحلولِ الحاسمةِ لمشكلاتِهِ المزمنةِ وأزماتِهِ المتفاقِمَةِ وأمراضِهِ التي استعصتْ على تلك الحلولِ المستوردةِ، القاصرةِ البعيدةِ عن هدي القرآن.

المبحث الثانى

آثار النزعة العقلانية الغربية على العلوم الإسلامية

أمثلة لآثارها على التفسير والمفسرين :

وقد ظهر التأثر بفلسفة الحضارة الغربية المادية والعقلية في التفسير وعلومه، فوجد نفر من علماء الإسلام من يفسر الآيات القرآنية بما يجعلها مقبولة بمقاييس الفلسفة الغربية. وقد بان ذلك بوضوح في تفسير الآيات التي تتعلق بالغيب والبعث وأشراط الساعة، وهي الأمور الغيبية التي لا تخضع للتجريب وملاحظة العقل ومقايسته. ولتأثر التفسير بهذه الفلسفة مظاهر متنوعة منها :

- تأويل ما لا يخضع لهذه النزعة بالحمل على التمثيل :

ففي تفسير قوله تعالى : " فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ "[1].

(1) سورة الحاقة، الآية رقم ١٣.

يقول عبدالقادر المغربي: "والنفخ في الصور في لسان الشرع قد يكون تمثيلاً وتصويراً لبعث الأموات وانبعاثهم من أرماسهم بسرعة تحكى سرعة المجتمعين وقد هتف بهم بوق عظيم"[1].

فالنفخ في الصور أمر غيبي أخبرنا الحق سبحانه بحدوثه حقيقة يوم القيامة دليلاً على البعث ولا ندرى كيفيته، ولما كان أهل الغرب لا يؤمنون بدين ولا بغيب إلا ما وافق عقولهم وخضع لمقاييس الحس والتجريب، لذلك نجد هذا النفر يؤول هذه الآية بالمخالفة للمأثور واللغة، ويجعل ذلك النفخ من باب التمثيل لا الحقيقة.

ويقول الشيخ محمد عبده: "والنفخ في الصور تمثيل لبعث الله للناس يوم القيامة بسرعة لا يمثلها إلا نفخة في بوق فإذا هم قيام ينظرون"[2].

وهم بهذا التأويل قد خالفوا ظاهر الآية، فقد نصت على أنه صور ينفخ فيه مرتان.

---

(1) تفسير جزء تبارك، ص٣٦ للشيخ عبدالقادر المغربي.

(2) تفسير جزء عم، ص٥٠، كتاب الجمهورية.

وخالفوا اللغة فقد نقل البخارى عن صاحب الصحاح أن الصور البوق الذى يزمر به وهو معروف. ويقال إن الصور اسم القرن بلغة اليمن، وشاهده قول الشاعر:

نحن نفخناهم غداة النقعين نفخا شديدا لا كنفخ الصورين [١]

وخالفوا المأثور، فقد روى الترمذى عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: جاء أعرابى إلى النبىﷺ فقال: "ما الصور؟ قال: قرن ينفخ فيه". [٢]

وما رواه كذلك عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: "وكيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن واستمع الإذن حتى يؤمر بالنفخ، فكأن ذلك ثقل على أصحاب النبىﷺ، فقال لهم: "قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا". [٣]

وأكد أنه قرن حقيقى ينفخ فيه، ما رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو عنه ﷺ: "ثم ينفخ فى الصور فلا يسمعه أحد إلا أصفى ليتا ورفع ليتا

---

(١) الفتح كتاب التفسير ٤١٣/٨، المفردات فى غريب القرآن، ص٤٢٦.

(٢) تحفة الأحوذى باب ما جاء فى الصور ٩٩/٧، قال الترمذى: حسن صحيح. وأخرجه أيضا أبو داود وأحمد والحاكم وصححه ووافقهالذهبى.

(٣) المصدر السابق، وحسنه الترمذى.

(صفحة العنق). قتال: وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله. قال فيصعق، ويصعق الناس ..." [1]

وخالفوا المفسرين أيضا، فقد صحح أهل الشأن من المفسرين القدماء أن الصور هو القرن الذى ينفخ فيه. [2]

وكذلك تأويلهم لقوله تعالى: "ويحمل عرش ربكم فوقهم يومئذ ثمانية". [3]

فقد أول صاحب المنار عرش الرحمن سبحانه لأن ظاهرة لا يوافق عليه العقل فى نظره فقال: "وحمل عرش الرب فى الآية قد يكون تمثيلا لكمال عزته سبحانه وانفراده بالجلالة والعزة والملك فى ذلك اليوم. [4]

وهذا التأويل مخالف لظاهر الآية وللغة وللمأثور، أما ظاهر الآية فواضح لأنها نصت على أن للرب سبحانه عرشا يحمله فوقهم ثمانية من الملائكة الكرام الشداد. وفى اللغة العرش سرير للملك، ومنه قوله تعالى عن بلقيس: "ولها عرش عظيم" [5]، والعرش أصله فى اللغة شئ مسقف مرتفع، وسمى

([1]) صحيح مسلم شرح النووى، باب خروج الدجال... والنفخ فى الصور ٣٨٤/٨.

([2]) انظر: جامع البيان ٣١٤/٥|، تفسير الرازى ٣٥١٣، تفسير القرطبى ٢٤٥٦/٤، ابن كثير ١٤٦/٢

([3]) سورة الحاقة: ١٧.

([4]) تفسير المنار ٤٧١/٨.

([5]) النمل: ٢٣.

مجلس السلطان عرشا اعتبارا بعلوه، ومنه قوله تعالى عن أبوى يوسف عليه السلام: "ورفع أبويه على العرش" [1]، وقوله تعالى عن عرش بلقيس: "نكروا لها عرشها" [2] وغيرها من الآيات [3].

قال شارح الطحاوية: "والقرآن إنما ينزل بلغة العرب، فهو: سرير ذو قوائم تحمله الملائكة، وهو كالقبة على العالم، وهو سقف المخلوقات.

ومن شعر عبد الله بن رواحة رضى الله عنه، الذى عرض به عن القراءة لامرأته حين اتهمته بجاريته:

شهدت بأن وعد الله حق وأن النار مثور الكفرينا

وأن العرش فوق الماء طاف وفوق العرش رب العالمينا

وتحمله ملائكة شداد ملائكة الإله مسومينا [4]

وأما السنة فقد أكدت هذا المعنى الحقيقى للعرش، فقد ثبت أن للعرش قوائم تحمله الملائكة كما جاء فى الصحيح عنه ﷺ: "فإن الناس يصعقون،

([1]) يوسف: ١٠٠.

([2]) النمل: ٤١.

([3]) انظر: المفردات، ص٤٩٣، القاموس المحيط، ص٥٩٧.

([4]) شرح الطحاوية، ص٢٧٨.

فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور". [١]

وروى أبو داود عن النبىﷺ قال: "أذن لى أن أحدث عن ملك من ملائكة الله عز وجل من حملة العرش، إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام". [٢]

وجعل صاحب الطحاوية تأويل العرش بالملك من التحريف الكلام الله تعالى فقال: "وأما من حرف كلام الله، وجعل العرش عبارة عن الملك، كيف يصنع بقوله: "ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية"، وقوله: "وكان عرشه على الماء" [٣]. أيقول: ويحمل ملكه يومئذ ثمانية! وكان ملكه على الماء! ويكون موسى عليه السلام آخذا بقوائم الملك؟! هل يقول هذا عاقل يدرى ما يقول". [٤]

وقد أكد المفسرون ذلك فقال القرطبى: "وأقاويل أهل التفسير على أن العرش هو السرير، وأنه جسم مجسم خلقه الله عز وجل؛ وأمر ملائكته

([١]) الفتح كتاب أحاديث الأنبياء ٥١٤/٦، ومسلم شرح النووى كتاب الفضائل ٢٥٧/٧.

([٢]) والحديث صححه ابن كثير ٤١٥/٤، والألبانى انظر هامش الطحاوية ص٢٧٩.

([٣]) سورة هود: ٧.

([٤]) شرح الطحاوية، ص٢٧٩.

بحمله، وتعبدهم بتعظيمه والطواف به، كما خلق فى الأرض بيتاً وأمر بنى آدم بالطواف به واستقباله فى الصلاة."[1]

ومن ذلك التأويل ما ورد عن الإمام محمد عبده بأن قصة آدم عليه السلام يحتمل أن تكون من باب التمثيل لا من باب الحقائق، والذى دعاه إلى هذا تأثره بنظرية التطور السائدة فى العالم حينئذ، يقول الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر مسائلا عن هذا الانحراف الفكرى: "لم ذكر الشيخ محمد عبده هذا الاحتمال، حينما نتسائل حقيقة عن هذا السر نجد أن الشيخ رأى أن فكرة التطور منتشرة فى جميع أرجاء أوربا، بل والعالم، وهى فى ظاهرها تتعارض مع التعاليم التى تنبئ أن آدم هو أول البشر، وهو الذى خلقه الله وسواه، وخاطب الملائكة فى شأنه وأمرهم أن يسجدوا له. رأى الشيخ أن كل ذلك لا يتلائم كثيرا مع فكرة التطور المزعومة.. فماذا صنع؟ ذكر هذا الاحتمال، وبذلك يمكننا أن نؤولها كيفما شئنا، وما كنا نود أن يجيز ذلك إذ أنه يفتح للناس باب التأويل فى صورة ضارة". [2]

([1]) تفسير القرطبى ٥٧٣٨/٨. وانظر: تفسير ابن كثير ٤٥١/٤، وروح المعانى ٧٨/١٦.

([2]) الإسلام والعقل، د/ عبد الحليم محمود، ص٢٢٨.

ومن ذلك تفسيرهم لقوله تعالى : " فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً "[1].

يقول صاحب المنار: "فإيتاء الكتاب باليمين أو اليسار أو وراء الظهر تمثيل وتصوير لحالة المطلع على أعماله في ذلك اليوم، فمن الناس من إذا كشف له عمله ابتهج واستبشر وهو التناول باليمين، ومنهم من إذا تكشفت له سوابق أعماله عبس وبسر وأعرض عنها وأدبر وتمنى لو لم تكشف له، وهذا هو التناول باليسار أو وراء الظهر..." [2].

ولم يقل بهذا التأويل أحد من المفسرين المشهورين ممن يرجع إليهم، وذهبوا إلى ظاهر الآية وحقيقة الألفاظ. [3]

فهم بهذا التأويل المخالف لحقيقة اللفظ مسبوقون بنظرائهم من أهل الاعتزال في القديم الذين أولوا حقيقة الآيات القرآنية لتوافق عقولهم، مع عدم الضرورة لهذا التأويل، فلا العقل يحيله، ولا الشرع ينكره، ولا دليل لهم على تأويلهم إلا مجرد تحكيم عقولهم فى غيوب خارجة عن مجال العقول.

([1]) سورة الانشقاق، الآيتان ٧-٨.

([2]) تفسير جزء عم، ص١٠.

([3]) انظر: تفسير الرازى ١٠٧/٣١، روح المعانى ١٤٤/١٦ وغيرهما.

– رد ما يحدث من انقلاب كوني يوم القيامة إلى أسباب طبيعية :

فتأثرهم بهذه النزعة المادية العقلية جعلهم يقربون أمر البعث إلى العقول بكونها قائمة على أصول طبيعية حتى تظهر بالطابع العلمي . على ظنهم . فتلقى القبول، لأن العلم ومكتشفاته أصبح الميزان للقبول عندهم لا الوحي وحقائقه.

يقول صاحب المنار في تفسير قوله تعالى: "إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجاً * وبُسَّتِ الجِبَالُ بَساً"[1]، فهذه الرجة هي التي سماها في سور أخرى بالقارعة والصاخة، والمعقول أن كوكباً يقرعها باصطدامه بها فتفتت جبالها وتكون كالهباء المتفرق، وهو ما يسمونه بالسديم ..." [2].

ويقول الشيخ المراغي في تفسير قوله تعالى : "وحُمِلَتِ الأَرْضُ والْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً واحِدَةً "[3]، : "أي رفعت من أماكنها ولا ندرى كيف رفعت فذلك من أنباء الغيب، فقد يكون ذلك بريح يبلغ من قوة عصفها أن تحملها، أو أن

---

(1) سورة الواقعة، الآيتان ٤–٥.

(2) تفسير المنار ٨/٤٧١.

(3) سورة الحاقة، الآية رقم ١٤.

ملكاً يحملها، أو بقدرة الله من غير سبب ظاهر، أو بمصادمة بعض الأجرام كذوات الأذناب ..." [1].

ويكفى القول أن ذلك من أنباء الغيب لا ندرى بأى سبب رفعت، وأما محاولة بيان أسبابه ورده إلى أسباب طبيعية فإنه من أثر التمسك بالعقل ومظاهر العلم الحديث، وتحكيمه في أمور غيبية ليس لنا أن نذكر فيها إلا ما ورد الشرع به، ونفوض علم ما سواه إلى الله سبحانه، فلا يلزم لقيام الساعة وأحداثها ما ذكروه من مرور كوكب في سيره بالقرب من آخر فيتصادما فيضطرب نظام الشمس بأسره، لا يلزم ذلك، بل الله سبحانه قادر على أن يحدث هذا بأمر أو أمور أخرى، أو من غير سبب من هذه الأسباب الكونية، فهو سبحانه لا يعجزه شئ، ونواميس الكون ملزمة للمخلوق لا خالقها سبحانه.

وفي تفسير قوله تعالى: " وأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ* تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ"[2].

---

(1) تفسير المراغي ٢٩/٥٤.

(2) سورة الفيل: ٣، ٤.

فسرت هذه المعجزة تفسيراً يجعلها أمراً مألوفاً قريباً من العقل الذي لا يؤمن بالخوارق، فالطير هو الذباب أو البعوض، والحجارة التي يحملها هي الجراثيم والميكروبات المعروفة حديثاً فأصابتهم بمرض الطاعون. وهذا التفسير بعيد عن معاني الألفاظ وحقيقتها ولم يعرفه العرب وقت نزول الآية، وقد فسرها العلماء وفق مدلول اللغة وظاهر الألفاظ، فالطير معروف في السماء لم يحدده الله سبحانه، فسره بعضهم بالخطاطيف أو غير ذلك من أنواعه، وأنه يحمل حجارة مرئية اختلفوا في حجمها ولم يحدده النص[١].

أما من رأى عدم قبول أهل العصر وعقول الغرب لهذا التفسير، فقد جاء باجتهاد منه يقربه إلى عقولهم. يقول محمد فريد وجدي: "ولا يبعد أن تكون تلك الطيور جراثيم الطاعون ..."[٢]. ويقول الشيخ المراغي: "ولاشك أن الذباب يحمل كثيراً من جراثيم الأمراض، فوقوع ذبابة واحدة ملوثة بالمكروب على الإنسان كافية في إصابته بالمرض الذي يحمله"[٣].

---

(١) انظر : البحر المحيط لابن حبان، ٥٤٤/١٠، تفسير القرطبى ٧٢٨٨/١٠، تفسير ابن كثير ٥٢١/٤.

(٢) المصحف المفسر، ص٨٢٢.

(٣) تفسير المراغى ٢٤٢/٣٠، ١٩٦١.

ويقول الشيخ محمد عبده: "فيجوز أن الطير من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض، وأن تكون الحجارة من الطين المسموم"[1].

ويرد ذلك الذهبي: "لأن هذه الجراثيم التي اكتشفها الطب الحديث لم يكن للعرب علم بها وقت نزول القرآن، فلا ينصرف ذهنه إلى تلك الجراثيم بحال"[2].

وكذلك رد هذا التأويل سيد قطب وبين أن تفسيرهم هذا قائم على تضييق نطاق الخوارق والغيبيات، ثم أشار إلى العلة في ذلك وهو مواجهتهم للخرافات الشائعة في هذا الوقت، مع الفتنة بالعلم الحديث كل ذلك جعلهم يسلكون هذا المنهج في التفسير"[3].

---

(1) تفسير جزء عم، ص٢٣٢.

(2) التفسير والمفسرون، ٢٣٥/٣.

(3) انظر: فى ظلال القرآن ٣٩٧٧/٣٠، ١٩٨٦.

- الإفراط فى تأويل الآيات التي تنص على معجزات الأنبياء لتتوافق مع العقل :

والإفراط في التأويل للآيات الغيبية مخرج آخر يلجأ إليه بعض المفسرين العصريين إذا كان ظاهر الآية يتعارض مع عقول أهل الغرب ومعاييرهم في الحكم على الأديان، فإحياء الميت بضربه ببعض البقرة ليس على حقيقته وإنما المقصود به حفظ دمه، وذلك في قوله تعالى : " فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ المَوْتَى ويُرِيكُمْ آيَاتِهِ"[1]،يقول صاحب المنار:"ومعنى إحياء الموتى على هذا حفظ الدماء التي كانت عرضة لأن تسفك بسبب الخلاف في قتل تلك النفس، أي يحيها بمثل هذه الأحكام، وهذا الإحياء على حد قوله تعالى:" ومَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً "[2].

ويرد الشيخ شلتوت فى تفسيره ذلك التأويل مع بيان سببه فيقول : "وجدنا هذا النص إن لم يمنع من الحمل على إرادة الحكم الشرعي فلا أقل من أن يبعده إبعاداً، ذلك بأن كلمة "اضربوه" واضحة في أن يضرب المقتول ببعض البقرة المذبوحة .. وقوله : "كذلك يحى الله الموتى" يدل على أن

---

(1) سورة البقرة، الآية رقم ٧٣.

(2) سورة المائدة، الآية رقم ٣٢. ، وانظر تفسير المنار ٢٦٩/٢.

الإحياء المشبه به إحياء حقيقي بعد موت تسلب فيه الروح، وليس إحياءاً حكمياً ...".

ثم يبين سبب ذلك التأويل: "والذى حمل الأستاذ الإمام على هذا فيما نظن هو رغبته في التخلص من الاعتراض الذي ذكره بعض المستشرقين".

فمبالغته في تحكيم العقل ومراعاته لفلسفة الغرب ومناهجهم فى النظر جعله يستبعد حصول مثل هذه المعجزة لسيدنا موسى عليه السلام، فأولها بهذا التأويل المخالف لحقيقة الألفاظ ومقصد الآيات.

وكذلك تصريح الحق سبحانه بأن إحياء الموتى من معجزات عيسى عليه السلام لا يدل على وقوع ذلك، فقوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام: "أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ"[1]، يقول الشيخ محمد عبده: "وغاية ما يفهم منها أن الله تعالى جعل فيه هذا السر ولكن لم يقل أنه خلق بالفعل، ولم يرد عن المعصوم أن شيئاً من ذلك وقع"[2].

---

(1) آل عمران: ٤٨، ٤٩.

(2) تفسير المنار ٢١١/٣.

وآية المائدة تؤكد وقوعه لأن الله سبحانه جعل ذلك متعلق النعمة فقال: "اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وعَلَى والِدَتِكَ إذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ القُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي المَهْدِ وكَهْلاً وإذْ عَلَّمْتُكَ الكِتَابَ والْحِكْمَةَ والتَّوْرَاةَ والإنجِيلَ وإذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإذْنِي"[1].

وأما رفع عيسى عليه السلام فإنه مؤول برفع مكانته وليس برفع الجسد والروح كما ورد، ففي تفسير قوله تعالى " إذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إنِّي مُتَوَفِّيكَ ورَافِعُكَ إلَيَّ ومُطَهِّرُكَ مِنَ الَذِينَ كَفَرُوا .."[2]، يقول الشيخ شلتوت: "وظاهر أن الرفع . الذي يكون بعد التوفيه . هو رفع المكانة لا رفع الجسد، خصوصاً وقد جاء بجانبه قوله : "ومطهرك من الذين كفروا"، مما يدل على أن الأمر أمر تشريف وتكريم. وقد جاء في القرآن بهذا المعنى : "في بيوت أذن الله أن ترفع"[3]، "ورفعنا لك ذكرك"[4].

وإذن فالتعبير بقوله: "ورافعك إلى"، وقوله: "بل رفعه الله إليه" كالتعبير في قولهم: لحق فلان بالرفيق الأعلى، وفي: "إن الله معنا"، وفي: "عند مليك

---

(1) المائدة : ١١٠. وانظر: منهج المدرسة العقلية فى التفسير ٢/٧٠٠.
(2) آل عمران : ٥٥.
(3) النور : ٣٦.
(4) الشرح : ٤.

مقتدر"، وكلها لا يفهم منها سوى معنى الرعاية والحفظ والدخول في الكنف المقدس، فمن أين تؤخذ كلمة السماء من كلمة (إليه)؟ [1].

ويقول صاحب المنار: "فالمتبادر في الآية إنى حميتك وجاعلك بعد الموت في مكان رفيع عندي، كما قال في إدريس عليه السلام: "ورفعناه مكاناً عليا"، وإن الله يضيف إليه ما يكون فيه الأبرار من عالم الغيب قبل البعث وبعده، كما قال في الشهداء: "أحياء عند ربهم ..." [2].

وتأويل الرفع هنا برفع المكانة خلاف الظاهر لأن رفع عيسى عليه السلام اقترن به الجار والمجرور (إلى) و(إليه)، ومرجع الضمير فيهما إلى الله سبحانه وتعالى، فالآيتان صريحتان في رفع عيسى عليه السلام إلى الله سبحانه، وأما ما ذكروه من آيات أخرى فالرفع فيها لم يقترن به جار ومجرور، فاحتمل ما ذكر من معاني الرفع، فالرفع إليه سبحانه لا إلى سواه، وقد أيد ظاهر المعنى السنة المتواترة، وهي المفسرة للقرآن. ثم لو كان المراد بالتوفى الإماتة كما ذكروا، وبالرفع رفع روحه، لكان القول الثاني لا قيمة له،

---

(1) الفتاوى للشيخ شلتوت، ص٦٣.

(2) تفسير المنار ٣/٣١٦.

لأن رفع روح عيسى عليه السلام بعد موته إلى ربه –وهو نبى كريم– معلوم لا حاجة إلى ذكره[1].

وثبت رفعه بجسده وروحه وأنه عليه السلام فى السماء فيما رواه البخارى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية". [2]

ومع ثبوت ذلك يقول الأستاذ الإمام: "والطريقة الثانية أن الآية على ظاهرها وأن التوفى على معناه الظاهر والمتبادر: وهو الإماتة العادية، وأن الرفع يكون بعده، وهو رفع الروح، ولا بدع فى إطلاق الخطاب على شخص وإرادة روحه، فإن الروح هى حقيقة الإنسان، والجسد كالثوب المستعار، فإنه يزيد وينقص، والإنسان إنسان، لأن روحه هىهى". [3]

وتأويل هؤلاء المحدثين لرفع عيسى عليه السلام برفع المكانة أو رفع روحه مخالف لظاهر الآيات ولما سيقت له، كما أنه مخالف لما صح فى

---

(1) انظر : منهج المدرسة العقلية في التفسير، ٧١١/٢.

(2) انظر: العقيدة الطحاوية، ص٥١٢، تفسير ابن كثير ٥٧٨/١، وقد بين ابن كثير

(3) المنار ١٧/٦.

المرفوع المتواتر من رفعه عليه السلام، وأنه سينزل إلى الدنيا فى نهايتها فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويمنع الجزية.

والسياق يؤكد رفعه عليه السلام بجسمه وروحه، لأنه لو كان عيسى عليه السلام قد مات فى الأرض ودفن، وأن المراد بالرفع رفع روحه أو منزلته –كما يزعم المنكرون– لما حسن ذكر الرفع فى مقابل نفى القتل والصلب، لأن الذى يناسب نفى القتل والصلب عنه هو رفعه حيا لا موته، بل إن قوله سبحانه وتعالى: "بل رفعه إليه" إنما ذكره لإبطال ما زعموه من قتله وصلبه! ورفع الروح لا يبطل القتل والصلب بل يجامعها، فإنهم لو قتلوه –فرضا– لرفعت روحه إلى الله كفيره من الأنبياء بل عامة المؤمنين، على أن فى أخباره وبشارته عز وجل بأنه رفعه إليه ما يشعر باختصاصه بذلك، والذى يمكن أن يختص به عيسى عليه السلام هو رفعه حيا بجسده وروحه. [1]

وما يؤكد حياة عيسى عليه السلام أيضا ورفعه بجسمه وروحه إلى السماء قوله تعالى: "وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا" [2]، فقد ذكر المفسرون أن الضمير فى قوله: "قبل موته"

([1]) نزول عيسى وقتله الدجال. د/ محمد خليل هراس، ص١٤.

([2]) النساء الآية: ١٥٩.

لـه احتمـالان: إمـا يرجـع إلـى عيسـى عليـه السـلام، أو إلـى الكتـابى، أى قبـل موت الكتابى سيؤمن بعيسى عليه السلام بأنه عبد الله ورسوله وليس إلاها أو يؤمن بمحمد ﷺ. والتقدير الأول أن كل أهل الكتاب فى زمن نزول عيسى عليـه السـلام سـيؤمنون بـه وأنـه لـيس بإلـه. وهـذا القـول هـو اختيـار جمهـور المفسرين وما رجحه ابن جرير وابن كثير رحمهما الله.

قال ابن كثير بعد عرض أقوال المفسرين فى ذلك: "ثم قال ابن جرير: وأولـى الأقوال بالصـحة القول الأول، وهو أنـه لا يبقـى أحد من أهل الكتـاب بعـد نـزول عيسـى عليـه السـلام إلا آمـن بـه قبـل مـوت عيسـى عليـه السلام، ولا شك أن هذا الذى قاله ابن جرير هو الصحيح، لأنه المقصود من سياق الآنفى تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى وصلبه، وتسليم من سلم لهم من النصارى الجهلة بذلك، فأخبر الله أنه لم يكن الأمر كذلك، وإنما شبه لهم فقتلوا الشبه وهم لا يتبينون ذلك، ثم إنه رفعه إليه وإنه باق حى، وإنه سينزل قبل يوم القيامة كما دلت عليه الأحاديث المتواترة ... إلى أن قال: بل المراد بها ما ذكرناه من تقرير وجود عيسى عليه السلام، وبقاء حياتـه فـى السماء، وأنـه سـينزل إلـى الأرض قبـل يـوم القيامـة ليكـذب هـؤلاء

وهؤلاء من اليهود والنصارى الذين تباينت أقوالهم فيه وتصادمت وخلت عن الحق". [1]

ويؤكد صحة عود الضمير فى "قبل موته" إلى عيسى عليه السلام أن الضمير قبله فى قوله: "ليؤمنن به" راجع إلى عيسى قطعا، فوجب أن يعود الضمير هنا "قبل موته" إليه أيضا لئلا يتفكك الكلام، كما أن الإيمان المخبر عنه إذا رجع الضمير على الكتابى فإنه إيمان لا ينفع أصحابه فى هذا الوقت ولا يخرجهم من الكفر ولا ينجيهم من النار، لأنه إيمان بعد معاينة الموت، فلا فائدة فيه وبالتالى فلا فائدة فى الإخبار به، كما أن الإيمان فى الآية مطلق فينصرف إلى حقيقته الشرعية، وهو الإيمان المعتد به الذى ينفع صاحبه ويخرجه من الكفر. [2]

وهكذا تبين أن الرفع فى الآية المقصود به هو رفع الجسد والروح لا رفع الروح فقط أو المكانة، وما دعا هؤلاء النفر من المحدثين إلى مخالفة الحق فى ذلك، وذهابهم إلى هذا التأويل المفرط إلا مباينة هذا الرفع لسنن

([1]) تفسير ابن كثير ٢٥٧٦/١ وانظر: البحر المحيط ١٢٨/٤، روح المعانى ١٨/٤.

([2]) انظر: نزول عيسى وقتله الدجال، ص٦٣.

الكون وقوانين العلم، وهى إله أهل هذا العصر! مع أن أصل وجود عيسى عليه السلام آية مخالفة لمعبودهم هذان فقد وجد بغير أب وتكلم فى المهد، وهو مخالف لسنن الطبيعة وقد ثبت بنص القرآن! ولو جرينا معهم فى رد ما يخالف السنن لأنكرنا كل ما أخبر به الله سبحانه من معجزات الأنبياء فى القرآن والسنة.

الفصل الثالث

رواد المدرسة العقلية الحديثة فى التفسير

وفيه عرض لأعلام هذه المدرسة وما تبنوه من أفكار وأهدافهم لتحقيق الإصلاح والتجديد في مصر، وما أُخذ عليهم سواء في الفكر أو التطبيق.

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول: السيد جمال الدين بن السيد صفتر الأفغاني.

المبحث الثانى : الشيخ محمد عبده.

المبحث الثالث : الشيخ محمد رشيد رضا.

المبحث الأول

السيد جمال الدين بن السيد صفتر الأفغاني

اسمه ونسبه:

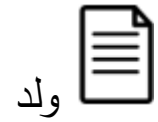

ولد السيد جمال الدين في قرية أسعد آباد من قرى كنر[١]سنة أربع وخمسين ومائتين وألف من الهجرة ،ويقال أنه من بيت عظيم في بلاد الأفغان يرتقي نسبه إلى سيدنا الحسين بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. وآل هذا البيت عشيرة وافرة العدد، وتقيم في خطة كنر من أعمال كابل، تبعد عنها مسيرة ثلاثة أيام، ولهذه العشيرة منزلة علية في قلوب الأفغانيين، يجلونها رعاية لحرمة نسبها الشريف.[٢]

وقد طعن البعض في صحة هذا النسب للسيد الأفغاني،فمعظم الكتابات التي تناولته تحدثت عن محاولة تعمية الأفغاني لنسبه وأصله ،فهذا محمد محمد حسين في كتابه الإسلام والحضارة الغربية يقول:"أول ما يريب الباحث في أمر الأفغاني تعميته أصله ونسبه ،فقد زعم أنه أفغاني سني ثم أثبت البحث الحديث بأدلة لا تقبل الشك أنه كان إيرانيا شيعيا،وزعم أنه شريف

---

(١) كِنَّرُ :بالكسر ،وتشديد ثانيه وفتحه، وآخره راء:قرية كبيرة من بغداد من نواحي دجيل [ينظر: معجم البلدان ياقوت الحموي (المتوفى: ٦٢٦هـ)الناشر: دار صادر، بيروت الطبعة: الثانية، ١٩٩٥ م ج٤ ص٤٨٣].

(٢) حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر:عبد الرزاق بن حسن البيطار ص٤٣٩،وينظرالإسلام والتجديد في مصر :تشارلز آدمس ص٧.

النسب حسيني الجد،وهو زعم لم يقم عليه دليل،والذي يكذب على الناس في بلده خليق أن لا يصدق في نسبه."[١]

ومن أهم الأسباب التي قيلت في ذلك هو أن: السيد جمال الدين كان يهدف من وراء ذلك أن يخفي تشيعه في البلاد العثمانية التي تنقل فيها وأهلها سنة حنفية كالأفغان.[٢]

ولن نطيل في تحقيق صحة نسب السيد جمال الدين الأفغاني ،وهل هو إيراني شيعي أم أفغاني سني ،ولن نقول إلا ما ذكره الدكتور فهد الرومي حين قال :"ثم نقول بعد هذا أي فضل للرجل بهذا النسب عند من دينه ﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [الحجرات: ١٣]."[٣]

نشأته العلمية:

انتقل السيد جمال الدين بانتقال أبيه إلى مدينة كابل، وفي السنة الثامنة من عمره أجلس للتعلم، وعني والده بتربيته فأيد العناية به قوة في فطرته، وإشراق في قريحته، وذكاء في مدركته، فأخذ من بدايات العلوم، ولم يقف دون نهاياتها، تلقى علوماً جمة برع في جميعها فمنها العلوم العربية من نحو وصرف ومعان وبيان وكتابة وتاريخ عام وخاص، ومنها علوم الشريعة من تفسير وحديث وفقه وأصول فقه وكلام وتصوف، ومنها علوم عقلية من

---

(١)الإسلام والحضارة الغربية :محمد محمد حسين دار الفرقان ص٦١،وينظر،الإسلام والتجديد في مصر :تشارلز آدمس ص٧.

(٢)الإسلام والحضارة الغربية :محمد محمد حسين ص٦١

(٣)منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير ص٧٦

منطق وحكمة وعلوم عملية رياضية من حساب وهندسة وجبر وهيئة أفلاك، ومنها نظريات الطب والتشريح، أخذ جميع تلك الفنون عن أساتذة ماهرين، على الطريقة المعروفة في تلك البلاد، وعلى ما في الكتب الإسلامية المشهورة، واستكمل الغاية من دروسه في الثامنة عشرة من سنه. [١]

عرض له السفر إلى البلاد الهندية، فأقام بها سنة وبضعة أشهر، ينظر في بعض العلوم الرياضية على الطريقة الأوربية الجديدة، وأتى بعد ذلك إلى الأقطار الحجازية لأداء فريضة الحج وطالت مدة سفره إليها نحو سنة، وهو ينتقل من بلد إلى بلد ومن قطر إلى قطر حتى وافى مكة المكرمة في سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف من الهجرة، فوقف على كثير من عادات الأمم التي مر بها في سياحته، واكتنه أخلاقهم، وأصاب من ذلك فوائد غزيرة، ثم رجع بعد أداء الفريضة إلى أفغانستان.[٢]

حياة الشيخ في أفغانستان:

بعد رجوع السيد جمال الدين الأفغاني إلى أفغانستان التحق بخدمة الأمير الحاكم محمد خان،وسار في جيشه ولازمه في حصار وفتح هراة[٣] التي كان يحتلها ابن عم الأمير وصهره السلطان أحمد شاه.

---

(١)ينظر:تاريخ الأستاذ الإمام :محمد رشيد رضا ج١ ص٢٧-٢٨،الإسلام والتجديد في مصر :تشارلز آدمس ص٨،منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير :فهد الرومي ص٧٩

(٢)ينظر:تاريخ الأستاذ الإمام :محمد رشيد رضا ج١ ص٢٧-٢٨،الإسلام والتجديد في مصر :تشارلز آدمس ص٨،منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير :فهد الرومي ص٧٩

(٣)هراة :من أمهات مدن خراسان، تقع قرب بوشنج، وهي اليوم من مدن أفغانستان. وإليها ينسب كثير من العلماء منهم أبو عاصم محمد بن أحمد الهروي المتوفي سنة ٤٥٨ هـ، وغيره من العلماء.[ينظر:معجم البلدان :ياقوت الحموي ج٥ ص٣٩٦].

ولما توفي محمد خان عام ١٨٦٤ خلفه ابنه شير على ،ونشبت الحرب بينه وبين إخوته الثلاثة واندلع لهيبها ،وانضم جمال الدين إلى محمد أعظم أحد هؤلاء الأخوة وقد ذاق حلاوة النصر ومرارة الهزيمة مرات إلى أن انتهى الأمر إليه فاتخذ جمال الدين كبيرًا لوزرائه.(١)

وكان جمال الدين حينذاك في السابعة والعشرين،ولم تلبث الحرب أن تجددت مرة ثانية وناصر الإنجليز الأمير شير على وأمدوه بالمال فظفر بأخيه واضطره إلى الفرار من البلاد ووفاه أجله بعد وقت قصير.ولم يجاهر الأمير الجديد جمال الدين بالعداوة ولم يمسسه بسوء،وذلك لأنه كان سيدا منسبًا ذا سلطان على العامة،ولكنه أضمر له الشر،فاستحسن جمال الدين مبارحة البلاد واستأذنه للحج مرة ثانية فأذن له وسافر من أفغانستان عام ١٨٦٩م ،واتجه إلى الهند . (٢)

رحلاته:

وبعد خروجه من أفغانستان ووصوله إلى الهند أكرمته حكومتها دون أن تتيح له الاشتغال بالسياسة أو مبادلة الرأي مع زعماء المسلمين فلم يقم أكثر من شهر ،ثم واصل السفر في باخرة من بواخر الحكومة إلى السويس وانتقل منها إلى القاهرة ليمضي بها أربعين يوماً ،وتردد على الجامع الأزهر خلال مدة إقامته فيها ،وخالطه كثير من الأساتذة والطلاب وحاضر من تردد منهم

---

(١)ينظر:الإسلام والتجديد في مصر :تشارلز آدمس ص٨،منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير :فهد الرومي ص٧٩، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالإستعمار الغربي د. محمد البهي ص٦٧.

(٢) ينظر:الإسلام والتجديد في مصر :تشارلز آدمس ص٨،منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير :فهد الرومي ص٧٩.

على محل إقامته، وكان حينذاك قد تحول عن الحجاز عزمه ،وتعجل بالسفر إلى الأستانة.[١]

في الأستانة :

وعند وصوله إلى الأستانة أكرم السلطان عبد الحميد وفادته إكرامًا بالغا،ورحب به العلماء وأصحاب المناصب السامية وبدأ كعادته يمتزج في حمية بحياة الدوائر التي فتحت له صدرها ،ولم يضع فرصة لإعلان آرائه وإذاعة تعاليمه فما لبث أن علا ذكره وعظم نفوذه.

ولكن هذا أحفظ عليه شيخ الإسلام حسن فهمي أفندي وأثار في صدره الغيرة والحسد ،وفي أواخر عام ١٨٧٠م دعاه مدير دار الفنون أو الجامعة التركية ليحاضر الطلاب في الحث على الصناعات شبه فيه المعيشة الإنسانية بجسد حي وأن كل صناعة بمنزلة عضو منه فشبه الملك بالمخ والحدادة بالعضد والزراعة بالكبد والملاحة بالرجلين وغير ذلك ثم قال : ولا حياة لجسد إلا بروح وروح هذا الجسم إما النبوة وإما الحكمة.[٢]

مما أهاج عليه شيخ الإسلام حسن فهمي أفندي وعددًا من العلماء والوعاظ في المساجد محتجين على جمال الدين بأنه جعل النبوة صنعة،ومع أن جمال الدين احتاط للأمر واستوثق من رضى الكثيرين من أصحاب المناصب السامية عن خطابه قبل إلقائه ،فإن شيخ الإسلام تمسك ببعض العبارات التى وردت به ،واتهمه باستعمال عبارات منافية للدين ماسة بحرمته

---

(١) الإسلام والتجديد في مصر :تشالز آدمس ص٨

(٢) ينظر :تاريخ الأستاذ الإمام :محمد رشيد رضا ص٣٠-٣١، الإسلام والتجديد في مصر :تشالز آدمس ص٨

،ولهجت الصحف بذكر ذلك،وأكثرت من الكتابة فيه،وانبرى جلال الدين في الرد عليها فعظم الأمر حتى طلبت إليه الحكومة التركية مغادرة البلاد تسكينًا للخواطر،فرحل عنها إلى مصر.[١]

في القاهرة:

وافى القاهرة في ٢٢ مارس سنة ١٨٧١م ،ولم تكن له عزيمة على الإقامة بها طويلاً ولكن رياض باشا الذي كان ناظر النظار لعهده جعل الحكومة المصرية تجري عليه عشرة جنيهات في الشهر تقديرًا لفضله وإجلالا لمكانته،فاستماله هذا إلى الإقامة في مصر.[٢]

ولما ذاع نبأ وصوله التف حوله كثير من طلبة العلم المجدين ،فقرأ لهم بعض الكتب العالية في الكلام والفلسفة وأصول الفقه والهيئة والتصوف،ثم وجه عنايته إلى إعداد جيل من الكتاب الناشئين ليذيعوا في الناس آراءه الجديدة فحمل تلامذته المبرزين على العمل في الكتابة وإنشاء الفصول في الصحف وولى وجهه بعد هذا شطر السياسة المصرية،وبذل جهدًا منقطع النظير في تنبيه البلاد إلى مضار التدخل الأجنبي في شئونها وكشف عن

---

(١) ينظر:الإسلام والتجديد في مصر:تشارلز آدمس ص٩،الإسلام والحضارة الغربية محمد محمد حسين ص٧٢،منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير :فهد الرومي ص٧٩.

(٢) ينظر:المراجع السابقة ص٩، ص٧٩.

سوءات الرقابية الأجنبية التي فرضت عليها،ولم تكتم مقالاته في الصحف عداءه للإنجليز وظل نشاطه متصلاً نحو ثمانية أعوام. (١)

وكان مما لا مفر منه أن يحدث بموقفه هذا المعارضة له،فقد قاوم العلماء المحافظون بعض آرائه، واتخذوا سبيلاً للطعن عليه من قراءاته للفلسفة التي كانت الدوائر المحافظة تحرم دائما النظر فيها وتعدها عدوة للدين الصحيح.

وأثارت أعماله السياسية شبهات الحكومة في نولياه ورابت على وجه خاص الموظفين البريطانيين وكانت مصر حينذاك قد أخذت شئونها المالية تتدهور في سرعة وأشرفت على الإفلاس ،فأدي هذا إلى التدخل الأوربي ثم إلى عزل الخديوي إسماعيل الذي أسرف كثيراً في صبغ البلاد بالصبغة الأوربية وانتهت جهوده بهذه الخاتمة السيئة وخلفه ابنه توفيق في ٢٥ يونية سنة ١٨٧٩م. (٢)

وكانت عناصر التحرير التي نشر لواءها جمال الدين ،وقوى سلطانها في البلاد تتوسم إنفاذ إصلاحات عظيمة على يدي الخديوي توفيق ويظهر أنه قبل ارتقائه إلى العرش كان قد عاهد جمال الدين وخاصته على أنه إذا آل إليه الأمر أيدهم في جهودهم الإصلاحية،ولكنه لم يكد يرتقي

---

(١)ينظر:الإسلام والتجديد في مصر:تشارلز آدمس ص٩،منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير :فهد الرومي ص٧٩.

(٢)الإسلام والتجديد في مصر:تشارلز آدمس ص١٠،ينظر: حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر:عبد الرزاق بن حسن البيطار ص٤٣٩

العرش حتى أصدر أمره في سبتمبر سنة ١٨٧٩م بإخراج جمال الدين من مصر هو وتابعه الفارسي المخلص أبو تراب ففارق مصر إلى الهند. [١]

في الهند :

أقام في بالهند في حيدر آباد ،وهناك صنف بالفارسية كتابه :"**الرد على الدهريين**"وهو المصنف الوحيد الذي كتب له البقاء من دون سائر مصنفاته المبسوطة ،وقد دافع فيه عن الإسلام ورد كيد المتهجمين عليه سافر بعدها إلى لندم ثم منها إلى باريس.[٢]

وفي باريس:

أقام في باريس ما يزيد عن ثلاثة سنوات عهدت "**جمعية العروة الوثقى**" فيها أن ينشئ جريدة "**العروة الوثقى**" فاتصل بتلميذه الإمام محمد عبده ،وقد كان منفياً في سوريا فأصدرا الجريدة ،وقد كان السيد جمال الدين مديرًا لسياستها،والشيخ محمد عبده رئيسًا لتحريرها سنة ١٣٠١هـ-١٨٨٧م؛ولكن الجريدة لم تلبث سوى سبعة اشهر وأيام ثم توقفت لمحاربة الاستعمار البريطاني لها ،وعاد محمد عبده إلى سوريا ثم إلى مصر معتزلاً السياسة.[٣]

***أهداف السيد جمال الدين الأفغاني لتحقيق الإصلاح :**

---

(١)الإسلام والتجديد في مصر:تشارلز آدمس ص١٠،ينظر: حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر:عبد الرزاق بن حسن البيطار ص٤٣٩

(٢)الإسلام والتجديد في مصر:تشارلز آدمس ص١٠،ينظر: حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر:عبد الرزاق بن حسن البيطار ص٤٣٩

(٣)ينظر:تفسير المنار ج١ ص١١ ،منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير :د/ فهد الرومي ص٨١

تلون نشاط الشيخ جمال الدين الأفغاني في مجال الإصلاح باللون السياسي العام،الذي كان ينوي به تحقيق غاياته ،فقد خيل إليه كما قال المستشرق تشالز آدمس:"أنها أسرع الطرق وآكدها في تحرير الشعوب الإسلامية وتغذيتها بالحرية الضرورية لتنظيم شئونها؛أما وسائل الاصلاح التدريجي والتعليم فكان يرى أنها بطيئة جدا غير محققة العاقبة." (١)

على أية حال ؛فإن كان هدف السيد جمال الدين الأفغاني من وراء الثورات السياسية هو الإصلاح الديني ،فإن هدفه من تحقيق الإصلاح الديني يتبلور في الآتي:

أولاً:كان أهم أهداف هذا النشاط وأساسه الذي يقوم عليه هو جعل"القرآن" والقرآن وحده هو المصدر الذي يجب أن يلتف حوله الجميع ،فيقول:"لا ألتمس بقولي هذا –في الدعوة إلى الوحدة– أن يكون مالك الأمر في الجميع شخصًا واحدًا، فإن هذا ربما كان عسيرًا، ولكني أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن، ووجهة وحدتهم الدين، وكل ذي ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع، فإن حياته بحياته وبقاءه ببقائه." (٢)

ثانيًا: كما كانت الغاية التي يرمي إليها جمال الدين وأهم الأغراض من جميع جهوده التي لا تعرف الكلل ومن إثارته للنفوس وتهييجه المتواصل للناس هو **توحيد كلمة الإسلام ،ولم شمل المسلمين في سائر أقطار العالم في حوزة دولة واحدة تحت ظل الخليفة الأعظم لا يشاركه في الحكم أحد**،كما كانت

---

(١)الإسلام والتجديد في مصر :تشارلز آدمس ص١٥

(٢)الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالإستعمار الغربي :د/ محمد البهي ص٦٤

الحال في أيام الإسلام المجيدة وعصره الذهبي ،وقبل أن توهن منه الفرقة والانقسام،وقد بانت أقطار المسلمين غارقة في وهدة الجهل واليأس فأصبحت فريسة للإعتداء الأوربي.[١]

يقول الدكتور محمد البهي:" كان جمال الدين يتحدث عن "وحدة المسلمين" مرة، وعن "حكومات إسلامية مستقلة يرتبط بعضها ببعض في "شبه اتحاد" مرة آخرى؛ ومع ذلك فالشيء الذي لم يتغير عنده هو الدعوة إلى الأخذ بتعاليم الإسلام،سواء في قيام الحكومة الواحدة أو في ارتباط الحكومات المختلفة. [٢]

يقول المستشرق تشارلز آدمس:" قال جورجي زيدان المؤرخ السوري وبعد أن قرر:"أن الغرض الذي كان جمال الدين يصوب نحوه أعماله والمحور الذي كانت تدور عليه آماله توحيد كلمة الإسلام، فيقول:"إنه قد بذل في هذا المسعى جهده وانقطع عن العالم من أجله فلم يتجذ زوجة ،ولا التمس كسبًا؛ ولكنه مع ذلك لم يتوفق إلى ما أراده ،فقضى ولم يدون من بنات أفكاره،إلا رسالة في نفي مذهب الدهريين،ورسائل متفرقة في مواضع مختلفة قد تقدم ذكرها ولكنه بث في نفوس أصدقائه ومريديه روحًا حيه،حركت هممهم وحددت أقلامهم فانتفع الشرق وسوف ينتفع باعمالهم."[٣]

---

(١)ينظر:الإسلام والتجديد في مصر :تشارلز آدمس ص١٥

(٢)الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالإستعمار الغربي :د/ محمد البهي ص٦٦

(٣)الإسلام والتجديد في مصر :تشارلز آدمس ص١٩

ومما قوى هذا الفكر عند السيد جمال الدين الأفغاني أنه كان يرى أن الإسلام –في جميع المسائل الجوهرية–دين عام للعالم أجمع قادر تمام القدرة بما فيه من قوة روحية على ملاءمة الظروف المتغيرة في كل جيل. [١]

ثالثًا: الدعوة إلى التعجيل بحياة إيجابية متكاملة داخل البلاد الإسلامية تكون أقوى،أو على الأقل تسير جنبا إلى جنب لما عليه الغرب ،مع الدعوة إلى مكافحة العيوب الجزئية الداخلية،وهي عيوب نشأت عن إهمال الإسلام بسبب ما تراكم عليه من غبار!! [٢]

فقد كان السيد جمال الدين الأفغاني–لهذا الاتصال المباشر بالغربيين– يضع أمام سامعيه "مثلا منظورًا" من الحياة يريد أن يصل إليه المسلمون،ولكن عن طريق التمسك بإسلامهم الذي أودع في كتاب الله.وليس عن طريق ذاك الذي شوهته العقول المغرضة وحرفته الألسنة الملتوية!! [٣]

يتحدث عن أخذ ما عند الغرب من حضارة ومدنية وعلم؛ ولكن على أساس أن يكون ذلك في تلاؤم مع الإسلام؛أو لأن الإسلام يدعو إليه. [٤]

ويتحدث عن مقاومة الاستعمار الغربي وبالأخص عن مقاومة الاستعمار الإنجليزي،ولكنه في حديثه عن ذلك يتكئ على الإسلام، ويطلب تحقيق تعاليمه.[٥]

---

(١)ينظر:الإسلام والتجديد في مصر :تشارلز آدمس ص١٥

(٢)ينظر:الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالإستعمار الغربي :د/ محمد البهي ص٦٢-٦٣

(٣)الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالإستعمار الغربي: د/ محمد البهي ص٦٦.

(٤)المرجع السابق ص٦٢-٦٣.

(٥)الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالإستعمار الغربي: د/ محمد البهي ص٦٢-٦٣ص٦٦.

***ما يؤخذ على دعوة الشيخ جمال الدين الأفغاني:**

طعن البعض في جهود السيد جمال الدين الأفغاني للأسباب الآتية:

أولاً:الدعوة إلى توحيد الأديان:

قال فضيلة الشيخ محمد بن سعيد القحطاني فيما نقله عن خاطرات الشيخ جمال الدين الأفغاني:" وهو أول من حمل راية الدعوة إلى زمالة الأديان فهو يقول في خاطراته بعنوان "نظرية الوحدة" ما نصه: "وجدت بعد كل بحث وتنقيب وإمعان أن أديان التوحيد الثلاثة على تمام الاتفاق في المبدأ والغاية وإذا نقص في واحد منها شيء من أوامر الخير المطلق استكمله الثاني وعلى هذا لاح لي بارق أمل كبير أن تتحد أهل الأديان الثلاثة مثلما اتحدت الأديان في جوهرها وأصلها وغايتها وأنه بهذا الاتحاد يكون البشر قد خطا نحو السلام خطوة كبيرة في هذه الحياة القصيرة ،وأخذت أضع لنظريتي هذه خططاً وأخط أسطراً وأحبر رسائل للدعوة لكل ذلك، وأنا لم أخالط أهل الأديان كلهم عن قرب وكثب ولا تعمقت في أسباب اختلاف أهل الدين الواحد وتفرقهم فرقاً وشيعاً وطوائف."(١)

ثانيـاً: تقليـل السـيد جمـال الـدين مـن شـأن السـلف الصـالح وأئمـة المـذاهب الفقهيـة؛ بـل واعتبـار مـا كتبـوه تراكمـات تحـول بـين القرآن الكـريم وبـين عقـول الأمة،فيقول:"القرآن وحده سبب الهداية والعمدة في الدعاية أما ما تراكم عليه

(١)الولاء والبراء في الإسلام من مفاهيم عقيدة السلف: محمد بن سعيد بن سالم القحطاني تقديم: فضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي الناشر: دار طيبة، الرياض – المملكة العربية السعودية الطبعة: الأولى ص٣٤٦

وتجمع حوله من آراء الرجال واستنباطهم ونظرياتهم فينبغي أن لا نعول عليه كوحي وإنما نستأنس به كرأي ... "[١]

كما يقول"فالتواتر والإجماع وأعمال النبي المتواترة إلى اليوم هي السنة الصحيحة التي تدخل في مفهوم القرآن وحده والدعوة إلى القرآن وحده."[٢]

ثالثًا:اشتراك السيد جمال الدين في النشاط المعروف باسم "الماسونية الصهيونية":

يقول الدكتور محمد محمد حسين :" واعتبر البعض أنه كان من وراء جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده قوتان كبيرتان تعملان على ترويج آرائهما وإعلاء ذكرهما ،وهما الماسونية –قمة الأجهزة الصهيونية السرية– والاستعمار،وقد نجحت هاتان القوتان في تدعيم زعامتهما الفكرية والدينية في المجتمع الإسلامي كله."[٣]

---

(١)جمال الدين الأفغاني:عبدالقادر المغربي ص ٦٢ – ٦٣،ينظر:موسوعة الفرق المنتسبة للإسلام إعداد: مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ عَلوي بن عبد القادر السقاف الناشر: موقع الدرر السنية على الإنترنت ج٤ ص٢٤٣.

(٢)جمال الدين الأفغاني: عبدالقادر المغربي ص ٦٢ – ٦٣

(٣)الإسلام والحضارة الغربية :محمد محمد حسين ص٨٠

***مؤلفات الشيخ جمال الدين الأفغاني:**

لقد كان الغالب على نشاط السيد الأفغاني هو النشاط السياسي فلم يكثر من التصنيف اعتمادًا على ما كان يبثه في نفوس العاملين وانصرافًا إلى الدعوة بالسر والعلن ،وأنه إنما يتناول ما يتناول من العلم في دروسه ما يدفع به عجلة السياسة خطوة نحو أغراضه وأهدافه، وقد تعرض له في أثناء حديثه آية قرآنية يستشهد بها لتقوية رأيه ثم يذهب في تفسيرها تفسيراً يقتصر فيه على الجانب الذي يتكلم فيه من غير استقصاء لمعانيها. [١]

ومن ثم فلم يكن له تفسير مستقل ؛وإنما كان تفسيره آيات متناثرة بين ثنايا مقالاته، وله من المؤلفات:(تاريخ الأفغان)مطبوع و(رسالة الرد على الدهريين)مطبوعة،وقد ترجمها إلى العربية تلميذه الشيخ محمد عبده،وقد ألفها الشيخ بعد خروجه من مصر ذاهبًا إلى الهند عام١٨٧٩م ،وهو المصنف الوحيد الذي كتب له البقاء من دون سائر مصنفاته المبسوطة ،وقد دافع فيه عن الإسلام ورد كيد المتهجمين عليه.[٢]

ومن أهم ما كتب عن السيد جمال الدين الأفغاني كتاب(خاطرات جمال الدين الأفغاني)مطبوع ،وقد جمع فيه محمد باشا المخزومي كثيرًا من آرائه ،وكتاب (جمال الدين الأفغاني باعث النهضة الفكرية في الشرق) ولمحمد سلّام مدكور ،وهو مطبوع أيضًا[٣].

---

(١)موسوعة الفرق المنتسبة للإسلام إعداد: مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ عَلوي بن عبد القادر السقاف الناشر:موقع الدرر السنية على الإنترنت ج٤ ص٢٤٣

(٢)الإسلام والتجديد في مصر :تشالز آدمس ص١٠

(٣)الأعلام:الزركلي ج٦ ص١٦٨

***وفاته:**

مكث جمال الدين في الأستانة زهاء أربعة أعوام حتى داهمه السرطان في فكه الأسفل فمات –رحمه الله– في سنة ١٨٩٧م، وقال طبيبه الخاص أن شدة ولع الأفغاني بالسيجار الإفرنجي وشربه للشاي وتناوله للطعام مالحاً كان من مسببات السرطان. [١]

(١)ينظر:منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير ص١٠٧،الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالإستعمار الغربي محمد البهي ص٩٠

المبحث الثانى

الشيخ محمد عبده

*مولده ونشأته العلمية:

ولد في أواخر سنة (١٢٦٥ هـ – ١٨٤٩م)؛ في شنرا (من قرى الغربية بمصر)ونشأ في محلة نصر (بالبحيرة) لم يتعلم محمد عبده القراءة والكتابة إلا بعد أن جاوز العاشرة من عمره وقد كتب عن بداية ذلك :فقال :"تعلمت القراءة والكتابة في منزل والدى ،ثم انتقلت إلى دار حافظ القرآن قرأت عليه وحدي جميع القرآن أول مرة ثم أعدته حتى أتممت حفظه جميعه في مدة سنتين ."[١]

ثم بعد ذلك انتقل إلى المسجد الأحمدى بطنطا ليتعلم التجويد ومكث سنة ونصف لم يفهم شيئا لرداءة طريقة التعليم فيها ،فقد كان تحفظه على طريقتهم من ناحية :"إلقاء

(١)تاريخ الأستاذ الإمام :رشيد رضا ج١ ص٢٠،الأعلام:الزركلي ج٦ ص٢٥٢

المعلم ما يعرفه أو ما لا يعرفه بدون أن يراعى المتعلم ودرجة استعداده للفهم ."[١]

ثم انتقل إلى الأزهر في منتصف شوال سنة ١٢٨٢هـ،وقد عانى من نفس طريقة التعليم في الأزهر." [٢]،وقد كان لخاله الشيخ درويش أثر كبير في تحبيبه في العلم ،فداوم على طلب العلم على شيوخه فكان خاله يسأله "ما درست المنطق؟ ما درست الحساب؟ ما درست شيئًا من مبادئ الهندسة ؟ولقد تلمس هذه العلوم على شيخه جمال الدين الأفغانى في شهر المحرم سنة ١٢٨٧هـ- ١٨٦٩م ،فتلقى عنه بعض العلوم الرياضية والفلسفية والكلامية."[٣] .

---

(١)ينظر تاريخ الأستاذ الإمام :رشيد رضا ج١ ص٢٠، الأعلام :الزركلى ج٦ ص٢٥٣-٢٥٤،الإسلام والتجديد في مصر :تشارلز آدمس ص٢٠

(٢)تاريخ الأستاذ الإمام ج١ ص٢٠،ينظر الإمام محمد عبده :د/محمد محمد البهى ص١٠٣

(٣) ينظر :تاريخ الأستاذ الإمام :رشيد رضا ج١ ص٢٦، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر :عبد الرزاق بن حسن بن إبراهيم البيطار الميداني الدمشقي (المتوفى: ١٣٣٥هـ) ص٤٤٠-٤٤١

عرض محمد عبده نفسه على لجنة الامتحان في الأزهر لنيل شهادة العالمية في سنة ١٢٩٤هـ- ١٨٦٧م فحصل عليها ."[١]

وشارك في مناصرة الثورة العرابية، فسجن ثلاثة أشهر للتحقيق، ونفي إلى بلاد الشام،سنة ١٢٩٩ هـ -١٨٨١م ،وسافر إلى باريس فأصدر مع صديقه وأستاذه جمال الدين الأفغاني جريدة (العروة الوثقى) وعاد إلى بيروت فاشتغل بالتدريس والتأليف، وسمح له بدخول مصر فعاد سنة ١٣٠٦ هـ -١٨٨٨م ،وتولى منصب القضاء، ثم جعل مستشارًا في محكمة الاستئناف، فمفتيا للديار المصرية سنة ١٣١٧ هـ ،واستمر إلى أن توفي بالإسكندرية، ودفن في القاهرة. [٢]

***أهداف مدرسة الشيخ محمد عبده لتحقيق الإصلاح الديني في مصر:**

يعتبر الكثيرون "الإمام محمد عبده" واحدًا من أبرز المجددين في الفقه الإسلامي في العصر الحديث،وأحد دعاة

---

(١)تاريخ الأستاذ الإمام :رشيد رضا ج١ ص١٠٢-١٠٣

(٢)ينظر:الأعلام:الزركلي ج٦ ص٢٥٢

الإصلاح وأعلام النهضة العربية الإسلامية الحديثة؛كما يعتبروه من أهم من ساهم بعلمه ووعيه واجتهاده في تحرير العقل العربي من الجمود الذي أصابه لعدة قرون.

هذا ويصور الشيخ "محمد عبده" أهداف تفكيره بقلمه الخاص كما يلي،فيقول:"وارتفع صوتي بالدعوة إلى أمرين عظيمين:

- **الأول:**تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفها إلى ينابيعها الأولى، واعتباره –الدين– ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لترد من شططه وتقلل من خلطه وخبطه." (١)

كما يقول:"وقد جهر الإسلام بأن الإنسان لم يخلق ليقاد بالزمام ،ولكنه فطر على أن يهتدي بالعلم والأعلام،أعلام

(١) تاريخ الإمام :رشيد رضا ج١ ص١١، ١٢

الكون ودلائل الحوادث،وإنما المعلمون منبهون ومرشدون،وإلى طريق البحث هادون." [1]

وعند تفسير الشيخ لقوله تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ من سورة البقرة [البقرة: ٢٤٢] يقول:"وأين أهل التقليد من هدي القرآن؟ هو يذكر لنا الأحكام بأسلوب يعدنا للعقل، ويجعلنا من أهل البصيرة وينهانا عن التقليد الأعمى، وهم يأمروننا بأن نخر على كلامهم وكلام أمثالهم صما وعميانا، ومن حاول منا الاهتداء بالكتاب العزيز وما بينه من السنة المتبعة أقاموا عليه النكير، ولعله لا يسلم من التبديع والتكفير، يزعمون أنهم بهذا يحافظون على الدين وما أضاع الدين إلا هذا، فإن بقينا على هذه التقاليد لا يبقى على هذا الدين أحد، فإننا نرى الناس يتسللون منه لواذا، وإذا رجعنا إلى العقل الذي هدانا الله تعالى إليه في

(١) رسالة التوحيد:محمد عبده دار الكتاب العربي ص٨٢

هذه الآية وأمثالها، رجي لنا أن نحيي ديننا فيكون دين العقل هو مرجع الأمم أجمعين."[1]

فَأطلق الإسلام بِهَذَا سُلْطَان الْعقل من كل مَا كَانَ قَيده وخلصه من كل تَقْلِيد كَانَ استعبده ورده إِلَى مَمْلَكَته يقْضى فِيهَا بِحكمِهِ وحكمته مَعَ الخضوع مَعَ ذَلِك لله وَحده وَالْوُقُوف عِنْد شَرِيعَته وَلَا حد للْعَمَل فى منْطقَة حُدُودهَا وَلَا نِهَايَة للنَّظَر يَمْتَد تَحت بنودها.[2]

هذا وينتقد الشيخ محمد عبده المقلدين بل ويعتبر التقليد مرض أصيب به بعض أهل العلم ،فيقول:" والتياث قلوب الجمهور من الخاصة بمرض التقليد فهم يعتقدون الأمر ثم يطلبون الدليل عليه ولا يريدونه إلا موافقا لما يعتقدون ،فإن جاءهم بما يخالف ما اعتقدوا قيدوه ولجوا فى مقاومته وإن أدى ذلك إلى جحد العقل برمته فأكثرهم يعتقد فيستدل وقلما نجد بينهم من يستدل ليعتقد ."[3]

---

(١)تفسير المنار :محمد رشيد رضا الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة النشر: ١٩٩٠ م ج٢ ص٣٥٩

(٢)ينظر:رسالة التوحيد :محمد عبده ص٨٣

(٣)رسالة التوحيد:محمد عبده ص٣٤

أما الأمر الثاني: فهو إصلاح اللغة العربية[١]،يقول تشارلز آدمس عند حديثه عن النزعة الدينية للشيخ محمد عبده:"ومما يوضح نزعته العامة بعض التوضيح إلى جانب ما بسطناه من آرائه ما كان يحس به من الألم لما فشا بين المسلمين من الجهل باللغة العربية ،ذلك الجهل الذي صدهم عن فهم ما جاء في كتب دينهم،**ولهذا جعل الشيخ عبده من أغراضه الأولى إحياء اللغة العربية باعتبارها وسيلة لاصلاح الدين.**"[٢]

على دعوة الشيخ محمد عبده:

لقيت مدرسة الشيخ محمد عبده وأستاذه جمال الدين الأفغاني نقدًا هادمًا يهدم كيان هذه المدرسة وتوجهاتها،لذا فقد كان من الضروري أن نسوق بعض النصوص التي وردت عن بعض المعاصرين لمحمد عبده والأفغاني والذين نبهوا إلى فساد فكرهما وانحراف مذهبهما،ومن هؤلاء الشيخ

---

(١)تاريخ الأستاذ الإمام :رشيد رضا ج١ ص١١، ١٢.

(٢)الإسلام والتجديد في مصر ص١١٠

محمد الجنبيهي المتوفي سنة ١٣٤٦هـ.[١]فله كتابات جمه تصرخ في وجه الأفغاني وتلاميذه بالفساد والضلال وذلك في كتابه الشهير :"بلايا بوزا"،وكذلك شيخ الإسلام مصطفى أفندي صبري في كتابه الكبير:"موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين"،فيقول:"أما النهضة الإصلاحية المنسوبة إلى الشيخ محمد عبده فخلاصتها أنه زعزع الأزهر عن جموده على الدين،فقرب كثيرًا من الأزهريين إلى اللادينيين خطوات ولم يقرب اللادينيين إلى الدين خطوة وهو الذي أدخل الماسونية في الأزهر بواسطة شيخه جمال الدين الأفغاني."[٢]

كما استفاض الشيخ يوسف النبهاني[٣]،وهو من علماء الأزهر الذين عاصروا السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده

---

(١) نسبة إلى جنبيه وهي قرية في إقليم البحيرة والذي ينتمي محمد عبده إلى قرية أخرى فيه،وهو من علماء الازهر المشهورين بالصلاح والتقوى،وهو والد عبد العزيز باشا رئيس محكمة النقد ووزير الأوقاف،وكان الشيخ الشنقيطي متزوجًا اخته،امتد به العمر إلى أكثر من عشرين عاما بعد وفاة محمد عبده سنة ١٩٠٤م وله عدة مؤلفات من بينها "الرزايا العصرية"و"بلايا بوزا"[ينظر:الأعلام :الزركلي ج٤ ص٢٨]

(٢)موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين ج١ ص١٤٤

(٣)النَّبْهَاني(١٢٦٥ – ١٣٥٠ هـ = ١٨٤٩ – ١٩٣٢ م)يوسف بن إسماعيل بن يوسف النبهاني: شاعر، أديب، من رجال القضاء. نسبته إلى " بني نبهان " من عرب البادية

تلميذه ،وتناولهم بالذم في قصيدته التى أصلق عليها اسم"**الرائية الصغرى في ذم البدعة ومدح السنة الغراء**"[1]،وقد نقل ذلك عنه الدكتور محمد محمد حسين في كتابه "**الإسلام والحضارة**"،وقد حكى أن الشيخ يوسف النبهاني اجتمع بالأفغاني ومحمد عبده حين كان مجاورًا في (الأزهر)،ثم عاد فالتقى الشيخ محمد عبده في بيروت أثناء إقامته بها منفيا بعد فشل الثورة العرابية ومحاكمة زعمائها،حين كان النبهاني رئيسًا لمحكمة الحقوق بها ،فيقول النبهاني في مقدمة قصيدته الرائية الصغرى:"لما اجتمعت بالشيخ رشيد رضا ذاكرته بشأن شيخه الشيخ محمد عبده فقلت له في شأنه إنكم تتخذونه قدوة في دينكم وتدعون الناس إلى ذلك وهذا غير صواب فإنه لم يكن محافظًا على

بفلسطين، استوطنوا قرية " إجْزِم " – بصيغة الأمر – التابعة لحيفا في شمالي فلسطين. وبها ولد ونشأ، وتعلم بالأزهر بمصر (سنة ١٢٨٣ – ١٢٨٩ م) وذهب إلى الآستانة ،فعمل في تحرير جريدة " الجوائب " وتصحيح ما يُطبع في مطبعتها، ورجع إلى بلاد الشام (١٢٩٦) فتنقل في أعمال القضاء إلى أن كان رئيسا لمحكمة الحقوق ببيروت (١٣٠٥) وأقام زيادة على عشرين سنة. وسافر إلى " المدينة " مجاورا، ونشبت الحرب العامة (الأولى) فعاد إلى قريته وتوفي بها. [ينظر :الأعلام :الزركلي ج٨ ص٢١٨]

(١)وهي قصيدة طويلة تبلغ ٥٥٣ بيتا خص الشيخ يوسف النبهاني كل فرد من أفراد هذه المدرسة ببعض أبياتها.

الفرائض الدينية ،فلا يصح أن يكون قدوة في الدين ،فمن المعلوم المسلم أنه كان يترك كثيرًا من الصلوات بلا عذر وأنا نفسي رافقته من وقت الضحى إلى قبيل المغرب عند رجل كان دعانا في جبل لبنان ،فلم يصل الظهر ولا العصر ،ولم يكن له عذر بل كان بكمال صحته،ورآني صليت الظهر والعصر ولم يصلهما،فسلم الشيخ رشيد رضا تركه لبعض الصلوات ثم قال لعل مذهبه يجوز الجمع في الحضر فتعجبت من هذا الجواب ؛لأن الجمع إنما يجوز في السفر والمطر والمرض عند بعض الأئمة بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء ،كما صح عنه ﷺ ذلك ،ولم يقل أحد إن الظهر والعصر يجتمعان حتى نحتمل صحة هذا الجواب ولو جدلاً.[1]

(١)الإسلام والحضارة الغربية :محمد محمد حسين ص٨٩

على أية حال فإن أسباب الطعن في دعوة الشيخ محمد عبده ومدرسته تتمثل في الآتي:

<u>أولاً</u>:دعوى الاجتهاد المطلق ،فقد كان سبيل محمد عبده للقيام بدور الإصلاح والتجديد؛ هو الدعوة إلى فتح باب الاجتهاد،وهذه الدعوة قد استغلت أوسع استغلال في تطوير الإسلام والاقتراب به من قيم الحضارة الغربية،وأن هذا التقريب المقصود بين الإسلام وبين الفكر الغربي والحضارة الغربية قد بلغ قمة التطرف،حين دخل محمد عبده في مفاوضات مع القسيس الإنجليزي إسحاق تيلور؛للتقريب بين الإسلام والنصرانية ،وهي المفاوضات التي أشار إليها رشيد رضا.(١)

وقد ناقش الشيخ يوسف النبهاني دعوى الاجتهاد المطلق التي بثتها هذه الجماعة مع عدم الكفاية من الناحية العلمية،وفساد الاستعداد من الناحية الروحية ،وسوء السيرة

(١)تاريخ الأستاذ الإمام ج٢ ص٥٦٨،ينظر:الإسلام والحضارة الغربية :محمد محمد حسين ص٧٨

مـن الناحيــة الخلقيــة والسـلوكية،وذلك فــي قصـيدته الرائيــة الصغرى ،فقال فيها :

وَكَم مِن قُرون قد تَوالت ولم يُجِل بِدَعوى اجتهادٍ مطلق عالمُ فكرًا

فَكَيف ادّعاه الجاهلون بِعَصرنا فَما أقبح الدَعوى وما أَفظع الأمرا[١]

كما قال الدكتورمحمد حسين فيما نقله من كلام النبهاني :"واعلم أن هؤلاء المفتونين يدعون الاجتهاد المطلق واستنباط الأحكام من الكتاب والسنة،ويرفضون المذاهب الأربعة مع جهلهم المركب وفسقهم المحقق ،وتهتكهم في أنواع المعاصي من الصغائر والكبائر وسائر الآثام وتركهم ما عدا الشهادتين من أركان الإسلام ،فلا صلاة ولا زكاة ولا حج ولا صيام،ومع كونهم كالأنعام بل أضل من الأنعام يدعي كل واحد منهم أنه من أئمة الإسلام ،ويدعو الناس إلى الإجتهاد حتى العوام." (٢)

(١)الرائية الصغرى في ذم البدعة:للإمام العارف بالله يوسف بن إسماعيل النبهاني ص٨

(٢)الإسلام والحضارة الغربية :محمد محمد حسين ص٨٩

والعلماء على خلاف في وجود المجتهد المطلق في زماننا هذا ،وقد ذهب الإمام الغزالي والرازي إلى أن شروط الاجتهاد المطلق لم تتحقق في شخص من علماء القرن الرابع فما بعده وأن من ادعى بلوغها منهم لا تسلم له دعواه ضرورة أن بلوغها لا يثبت بمجرد الدعوى . [1]

ثانيًا: ذم التقليد وتقديم العقل على النقل في الاستدلال.

ودعوى انتفاء التقليد مطلقًا من كل وجه لا تستقيم إلا أن يكونوا قد أحاطوا بعلوم الاجتهاد المطلق،وذلك لا يلائم المعلوم من أحوالهم أو أحوال أكثرهم، بالإضافة إلى أن ذم التقليد قد أوقع بهم في محظورات عدة، وخاصة القول بتحكيم العقل في مسائل العقيدة

(١)ينظر:الوسيط في المذهب:أبو حامد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ)ج٧ ص٢٩١،البحر المحيط في أصول الفقه:الزركشي ج٨ ص٢٤٠، الفروق : أبو العباس شهاب الدين الشهير بالقرافي ج٢ ص١٢١

ومن ذلك على سبيل المثال[1]:

١-تأويل خلق عيسى عليه السلام:

أول الشيخ محمد عبده خلق سيدنا عيسى عليه السلام بأحد وجهين:**أولهما** :اعتقاد قوي استولى على قلب مريم عليها السلام، فأحدث الحمل بها،وكثيرًا ما يكون الاعتقاد بالمرض مثلا مسببًا له.**ثانيهما**:روح لطيف أرسله الله إلي مريم فأحدث التلقيح بها،وغالبًا ما تؤثر الأرواح اللطيفة في الأجسام الكثيفة،وقد وضح هذا عند تفسيره لقوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٥]، فتجده يقول:" ويمكن تقريب هذه الآية الإلهية من السنن المعروفة في نظام الكائنات **بوجهين:**

(الوجه الأول):أن الاعتقاد القوي الذي يستولي على القلب ويستحوذ على المجموع العصبي يحدث في عالم المادة من

---

(١)ينظر:الفكر الإسلامي المعاصر دراسة وتقويم :غازي التوبة دار القلم بيروت-لبنان الطبعة الثانية ١٩٧٧م ص٤٦-٥٤.

الآثار ما يكون على خلاف المعتاد، فكم من سليم اعتقد أنه مصاب بمرض كذا وليس في بدنه شيء من جراثيم هذا المرض، فولد له اعتقاده تلك الجراثيم الحية وصار مريضا، وكم من امرئ سقي الماء القراح أو نحوه فشربه معتقدًا أنه سم ناقع فمات مسمومًا به، والحوادث في هذا الباب كثيرة أثبتتها التجارب، وإذا اعتبرنا بها في أمر ولادة المسيح نقول: إن مريم لما بشرت بأن الله – تعالى – سيهب لها ولدا بمحض قدرته، وهي على ما هي عليه من صحة الإيمان وقوة اليقين، انفعل مزاجها بهذا الاعتقاد انفعالا فعل في الرحم فعل التلقيح، كما يفعل الاعتقاد القوي في مزاج السليم فيمرض أو يموت، وفي مزاج المريض فيبرأ، وكان نفخ الروح الذي ورد في سورة أخرى متمما لهذا التأثير،(الوجه الثاني):وهو أقرب إلى الحق – وإن كان أخفى وأدق – وبيانه يتوقف على مقدمة وجيزة في تأثير الأرواح في الأشباح، وهي أن المخلوقات قسمان: أجسام كثيفة وأرواح لطيفة، وأن اللطيف هو الذي يحدث في الكثيف الحي ما نراه فيه من النمو والحركة والتوالد الذي يكون من النمو أو يكون النمو

منه، فلولا الهواء لما عاشت هذه الأحياء، والهواء روح ولذلك كان من أسمائه إذا تحرك الريح، وأصلها " روح " بكسر الراء، ولأجل الكسر قلبت الواو ياء لتناسبه، والماء الذي منه كل شيء حي مركب من روحين لطيفين، وهو يكاد يكون في حال التركيب وسطا بين الكثيف واللطيف ولكنه أقرب إلى الثاني، والكهربائية من الأرواح وناهيك بفعلها في الأشباح، فهذه الموجودات اللطيفة التي سميناها أرواحا هي التي تحدث معظم التغير الذي نشاهده في الكون، حتى إننا قد رأينا في هذا العصر من أسرارها ما لم يكن يخطر على بال أحد من قدماء فلاسفتنا، ويعتقد علماؤنا اليوم أن ما سيظهر منها في المستقبل أجل وأعظم. فإذا كان الأمر كذلك في الأرواح التي لا دليل عندنا على أنها تدرك وتريد، فلم لا يجوز أن يكون تأثير الأرواح العاقلة المريدة أعظم! ! إذا تمهد هذا فنقول: إن الله المسخر للأرواح المنبثة في الكائنات قد أرسل روحا من عنده إلى مريم فتمثل لها بشرا ونفخ فيها، فأحدثت نفخته التلقيح في رحمها، فحملت بعيسى – عليه

السلام –، وهل حملت إليها تلك النفخة مادة أم لا؟ الله أعلم."[1]

وما ذكره محمد عبده ما هو إلا أثر استعماله للعقل فيما لا يستطيع الوصول إليه من معجزات ،فأدى به إلى إنكار حقيقتها.

٢ –تأويل الجن بالميكروب:

فقد أول الشيخ محمد عبده الجن بالميكروبات،وذلك في ضوء تفسيره لقوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٥]فتجده يقول:" وقد قلنا في (المنار)غير مرة:إنه يصح أن يقال: إن الأجسام الحية الخفية التي عرفت في هذا العصر بواسطة النظارات المكبرة، وتسمى بالميكروبات يصح أن تكون نوعا من الجن، وقد

(١) تفسير المنار ج٣ ص٣٥٤

ثبت أنها علل لأكثر الأمراض. قلنا ذلك في تأويل ما ورد من أن الطاعون من وخز الجن، على أننا نحن المسلمين لسنا في حاجة إلى النزاع فيما أثبته العلم وقرره الأطباء أو إضافة شيء إليه مما لا دليل في العلم عليه لأجل تصحيح بعض الروايات الأحادية، فنحمد الله – تعالى – على أن القرآن أرفع من أن يعارضه العلم."[1]

ويقصد الشيخ محمد عبده بالرواية الأحادية ما روي عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: " فَنَاءُ أُمَّتِي بِالطَّعْنِ وَالطَّاعُونِ ". فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَذَا الطَّعْنُ قَدْ عَرَفْنَاهُ، فَمَا الطَّاعُونُ؟ قَالَ: " وَخْزُ أَعْدَائِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَفِي كُلٍّ شُهَدَاءُ ." [2]

٣- تأويل الإحياء في قوله تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾ بالمعنى المعنوي.

---

(١)تفسير المنار ج٣ ص٨١

(٢)ما أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم(١٩٥٢٨)حديث أبو موسى الأشعري ج٣٢ ص٢٩٣ ،الحاكم في المستدرك على الصحيحين ،برقم(١٥٨)،وقال :" هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه"ج١ ص١١٤

فعند تفسير الشيخ محمد عبده لقوله تعالى﴿ فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٧٣]ذهب إلى أن المراد بالإحياء في الآية هو الإحياء المعنوي على الرغم من إرادة المعنى المادي ؛وهو حقيقة الضرب وحقيقة الإحياء،فيقول:" وأما قوله: ﴿ فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾ فهو بيان لإخراج ما يكتمون،ويروون في هذا الضرب روايات كثيرة، قيل: إن المراد اضربوا المقتول بلسانها، وقيل: بفخذها وقيل: بذنبها، وقالوا: إنهم ضربوه فعادت إليه الحياة وقال: قتلني أخي أو ابن أخي فلان إلى آخر ما قالوه، والآية ليست نصا في مجمله فكيف بتفصيله؟ والظاهر مما قدمنا أن ذلك العمل كان وسيلة عندهم للفصل في الدماء عند التنازع في القاتل إذا وجد القتيل قرب بلد ولم يعرف قاتله؛ ليعرف الجاني من غيره، فمن غسل يده وفعل ما رسم لذلك في الشريعة بريء من الدم، ومن لم يفعل ثبتت عليه الجناية،ومعنى إحياء الموتى- على هذا -حفظ الدماء التي كانت عرضة لأن

تسفك، بسبب الخلاف في قتل تلك النفس، أي يحييها بمثل هذه الأحكام، وهذا الإحياء على حد قوله تعالى﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة: ٣٢]وقوله: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [البقـــــرة: ١٧٩] فالإحياء هنا معناه الاستبقاء كما هو المعنى في الآيتين ."(١)

٤- نفي حقيقة السحر :

فمن المحظورات التي وقع فيها الشيخ محمد عبده حيال تحكيم العقل في مسائل العقيدة هو القول بنفي السحر؛بل وينكر كونه جزءًا من العقيدة ،فعند تفسير قوله تعالى ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ

(١)تفسير المنار ج١ ص٢٩١

ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠٢]ومن البديهي أن ذكر القصة في القرآن لا يقتضي أن يكون كل ما يحكى فيها عن الناس صحيحا، فذكر السحر في هذه الآيات لا يستلزم إثبات ما يعتقد الناس منه، كما أن نسبة الكفر إلى سليمان التي علمت من النفي لا تستلزم أن تكون صحيحة؛ لأنها ذكرت في القرآن ولو لم يكن ذكرها في سياق النفي، بينا غير مرة أن القصص جاءت في القرآن لأجل الموعظة والاعتبار لا لبيان التاريخ ولا للحمل على الاعتقاد بجزئيات الأخبار عند الغابرين، وإنه ليحكى من عقائدهم الحق والباطل، ومن تقاليدهم الصادق والكاذب، ومن عاداتهم النافع والضار، لأجل الموعظة والاعتبار، فحكاية القرآن لا تعدو موضع العبرة ولا تتجاوز موطن الهداية، ولا بد أن يأتي في العبارة

أو السياق وأسلوب النظم ما يدل على استحسان الحسن واستهجان القبيح. "[1]

ثم يذكر مجموع الآيات التي ذكر فيها السحر في القرآن ويعلق عليها قائلا :" ومجموع هذه النصوص يدل على أن السحر إما حيلة وشعوذة، وإما صناعة علمية خفية يعرفها بعض الناس ويجهلها الأكثرون فيسمون العمل بها سحرا لخفاء سببه ولطف مأخذه، ويمكن أن يعد منه تأثير النفس الإنسانية في نفس أخرى لمثل هذه العلة، وقد قال المؤرخون: إن سحرة فرعون قد استعانوا بالزئبق على إظهار الحبال والعصي بصور الحيات والثعابين وتخييل أنها تسعى، وقد اعتاد الذين اتخذوا التأثيرات النفسية صناعة ووسيلة للمعاش أن يستعينوا بكلام مبهم وأسماء غريبة اشتهر عند الناس أنها من أسماء الشياطين وملوك الجان، وأنهم يحضرون إذا دعوا بها ويكونون مسخرين للداعي، ولمثل هذا الكلام تأثير في إثارة الوهم عرف بالتجربة، وسببه اعتقاد الواهم أن الشياطين يستجيبون لقارئه ويطيعون أمره، ومنهم من يعتقد أن فيه

(١)تفسير المنار ج١ ص٣٢٩

خاصية التأثير وليس فيه،وإنما تلك العقيدة الفاسدة تفعل في النفس الواهمة ما يغني منتحل السحر عن توجيه همته وتأثير إرادته، وهذا هو السبب في اعتقاد الدهماء أن السحر عمل يستعان عليه بالشياطين وأرواح الكواكب. "[1]

وقد أخطأ الشيخ محمد عبده في هذا الاعتقاد ،فقد أجمع أهل السنة والجماعة على أن للسحر حقيقة،وقد ثبت ذلك في الكثير من النصوص ومن ذلك:

أ- قوله تعالى ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ

(١)تفسير المنار ج١ ص٣٢٩

أَنفُسَهُمۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠٢] **وجه الاستدلال أن:** الآية تدل على أن للسحر حقيقة من وجوه

الأول: أن الله ﷻ قد أخبر فيها عن السحر وأنه مما يعلم ويتعلم وأن متعلمه يكفر بذلك، وهذه الصفات لا تكون إلا لما له حقيقة، مما يدل على أن له حقيقة.

الثاني: أن الله تعالى قد أخبر في هذه الآية بأن للسحر آثاراً محسوسة كالتفريق بين المرء وزوجه والأثر دليل على وجود المؤثر وأن له حقيقة.

الثالث: كما أخبر الله تعالى في هذه الآية بأن للسحر ضرراً لا يتحقق إلا بإذنه، والاستثناء دليل على حصول الآثار بسببه والضرر أو الأثر لا يكون إلا مماله حقيقة.(١)

ب–قوله تعالى ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ﴾[الفلق: ٤] هن الساحرات اللاتي يعقدن السحر وينفثن فيه،ولو لم

(١)مفاتيح الغيب :الرازي ج٣ ص٦٢٩،الجامع لأحكام القرآن الكريم : ج٢ ص٤٦

يكن للسحر حقيقة بل ومؤثرة لما أمر الله نبينا أن يستعيذ منه.(١)

وقد استفاضت في ذلك السنة ؛ومن النصوص الصحيحة في ذلك :

أ- اتفاق المفسرين على أن سبب نزول قوله تعالى ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ ﴾[البقرة: ١٠٢] ما كان من سِحْرِ لَبِيَدِ بْنِ الْأَعْصَمِ، وهو مما أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها قالت: سَحَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺرَجُلٌ مِنْ بَنِي زُرَيْقٍ، يُقَالُ لَهُ لَبِيدُ بْنُ الأَعْصَمِ، حَتَّى كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ كَانَ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَمَا فَعَلَهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَهُوَ عِنْدِي، لَكِنَّهُ دَعَا وَدَعَا، ثُمَّ

(١)ينظر:الكشف والبيان عن تفسير القرآن :الثعلبي ج١٠ ص٣٤٠،الهداية إلى بلوغ النهاية:مكي بن أبي طالب ج١٢ ص٨٥١٠

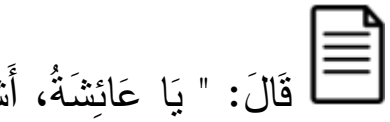

قَالَ: " يَا عَائِشَةُ، أَشَعَرْتِ أَنَّ اللَّهَ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ، أَتَانِي رَجُلاَنِ، فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي، وَالآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيَّ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: مَا وَجَعُ الرَّجُلِ؟ فَقَالَ: مَطْبُوبٌ، قَالَ: مَنْ طَبَّهُ؟ قَالَ: لَبِيدُ بْنُ الأَعْصَمِ، قَالَ: فِي أَيِّ شَيْءٍ؟ قَالَ: فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ، وَجُفِّ طَلْعِ نَخْلَةٍ ذَكَرٍ. قَالَ: وَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: فِي بِئْرِ ذَرْوَانَ " فَأَتَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي نَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَجَاءَ فَقَالَ: "يَا عَائِشَةُ، كَأَنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الحِنَّاءِ، أَوْ كَأَنَّ رُءُوسَ نَخْلِهَا رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ" قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَفَلاَ اسْتَخْرَجْتَهُ؟ قَالَ: "قَدْ عَافَانِي اللَّهُ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُثَوِّرَ عَلَى النَّاسِ فِيهِ شَرًّا" فَأَمَرَ بِهَا فَدُفِنَتْ."[1]

يقول الإمام القرطبي:"وفيه:أن النبي ﷺ قال لما حل السحر:(إن الله شفاني)،والشفاء إنما يكون برفع العلة وزوال

---

(١)أخرجه الإمام البخاري في صحيحه برقم(٥٧٦٣)كتاب:"الطب"،باب:"السحر"ج٧ ص١٣٦، (المطبوب): المسحور،(المشط): ما يسرح به الشعر، (المشاطة): هي الشعر الذي يسقط من الرأس واللحية عند تسريحه، (وعاء طلع النخل): هو الغشاء الذي يكون عليه ويطلق على الذكر والأنثى، ولذا قيده في الحديث بالذكر، وهي بئر في المدينة في بستان بني رزيق.، الماء الذي ينقع فيه الحنا أي أحمر ، أي كأن نخلها الذي يشرب من مائها – وقد التوى سعفه – رؤس الشياطين أي في قبحه.

المرض، فدل على أن له حقا وحقيقة،فهو مقطوع به بإخبار الله تعالى ورسوله على وجوده ووقوعه على هذا أهل الحل والعقد الذين ينعقد بهم الإجماع، ولا عبرة مع اتفاقهم بحثالة المعتزلة ومخالفتهم أهل الحق، ولقد شاع السحر وذاع في سابق الزمان وتكلم الناس فيه، ولم يبد من الصحابة ولا من التابعين إنكار لأصله."[١]

ب- جعل السحر من الكبائر ،فعن أبي هريرة ﷺعن النبي ﷺ قال: "اجتنبوا السبع الموبقات"، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: "الشرك بالله، والسحر،وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف،وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات."[٢]،فقد قرن المولى ﷻ السحر بالشرك بالله.

وإن قياس مثل هذه الأمور الغير مرئية كالسحر بمقياس العقل ،ثم نفيها لعدم قبوله لها يعد إنكار للمعلوم من الدين بالضرورة ،فإن الإنسان يؤمن بالكثير من الأمور بإخبار

---

(١)الجامع لأحكام القرآن :القرطبي ج٢ ص٤٦

(٢)أخرجه الإمام البخاري في صحيحه برقم(٢٧٦٦) ج٤ ص١٠.

الناس؛على الرغم من عدم رؤيتها ،فليس للإنسان في إدراكه أن يرى كل شيء وليس له أن ينفي ما لا يراه.

فيجب على الإنسان إن أخبره الله ﷻ بشيء أن يسلم له وإن لم يدركه عقله.

٥- تأويل النفاثات في العقد:

أول الشيخ محمد عبده المراد بقوله تعالى ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾[سورة الفلق:٤]،فتجده يقول:"والمراد بالنفاثات في العقد النمامون المقطعون لراوابط الألفة المحرقون لها بما يلقون عليها من ضرائم نمائمهم ،وإنما جاءت العبارة بالنفاثات في العقد لأن الله جل شأنه أراد أن يشبههم بأولئك السحرة المشعوزين الذين أرادوا أن يحلوا عقدة المحبة بين المرء وزرجه مثلاً فيما يوهمون به العامة عقدوا عقدة ثم نفثوا فيها وحلوها ليكون ذلك حلاً للعقدة التي بين الزوجين،والنميمة تشبه أن يكون ضرباً من السحر لأنها تحول بين الصديقين من محبة إلى عداوة بوسيلة خفية كاذبة

والنميمة تضلل وجدان الصديقين كما يضلل الليل من يسير فيه بظلمته.[١]

٦- تأويل الطير الأبابيل والحجارة السجيل:

أول الشيخ محمد عبده الطير الأبابيل بأنه من جنس البعوض أو الذباب،وحجارة السجين بأنها طين يابس مسموم هي جراثيم مرض الجدري أو الحصبة .

قال محمد عبده في تفسير سورة الفيل من جزء عم:" وقد بينت لنا هذه السورة الكريمة أن ذلك الجدري وتلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش بواسطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح ،فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض ،وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذي تحمله الرياح ،فيعلق بأرجل هذه الحيوانات ، إذا اتصل بجسد دخل في مسامه فأثار فيه تلك القروح ،التي تنتهي بفساد الجسم وتساقط لحمه ،وأن كثيرًا

(١)تفسير جزء عم:محمد عبده ص١٣٨

من هذه الطيور الضعيفة يعد من أعظم جنود الله في إهلاك من يريد إهلاكه من البشر وأن هذا الحيوان الصغير –الذي يسمونه الآن بالميكروب –لا يخرج عنها ،وهو فرق وجماعات لا يحصي عددها إلا بارئها ،فهذا الطاغية أراد أن يهدم البيت أرسل الله عليه من الطير ما يوصل إليه مادة الجدري أو الحصبة ،فأهلكته وأهلكت قومه قبل أن يدخل مكة ."[١]،

وقد أجمع المفسرون على أن المراد بالطير حقيقة الطير،والمراد بالحجارة حقيقتها،وقد تعددت أقوال المفسرين في وصفهما . [٢]

***مؤلفات الشيخ محمد عبده:**

له (تفسير القرآن الكريم) لم يتمه، فقد :" ابتدأ الأستاذ الإمام بأول القرآن فى غرة المحرم سنة ١٣١٧ وانتهى عند تفسير

---

(١) تفسير جزء عم:محمد عبده ص١٣٨

(٢) ينظر:الكشف والبيان عن تفسير القرآن:الثعلبي ج١٠ ص٢٩٧،الهداية إلى بلوغ النهاية :مكي بن أبي طالب ج١٢ ص٨٤٤٢،تفسير السمعاني:أبو المظفر السمعاني ج٦ ص٢٨٥.

قوله تعالى فى الآية [١٢٦] من سورة النساء: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطًا ﴾ وذلك فى منتصف المحرم سنة ١٣٢٣ هـ، إذ توفى – رحمه الله – لثمان خلون من جمادى الأولى من السنة نفسها."[١]

وقد كان هذا التفسير عبارة عن دروس يلقيها على تلاميذه دون أن يدونها، فيقول محمد حسين الذهبى في هذا:"وإذا كان الأستاذ الإمام قد ألقى هذه الدروس فى التفسير على طلابه ولم يدون شيئا، فإنا لا نرى حرجا من جعلها أثرا من آثاره فى التفسير؛وذلك لأن تلميذه السيد محمد رشيد رضا كان يكتب فى أثناء إلقاء هذه الدروس مذكرات يودعها ما يراه أهم أقوال الأستاذ الإمام، ثم يحفظ ما كتب ليمده بما يذكره من أقواله وقت الفراغ، ثم قام بعد ذلك بنشر ما كتب فى مجلته "المنار" وكان – كما يقول هو فى مقدمة تفسيره – يطلع الأستاذ الإمام على ما أعده للطبع، كلما تيسر ذلك بعد جمع حروفه فى المطبعة وقبل طبعه، فكان

(١) التفسير والمفسرون : محمد السيد حسين الذهبي ج٢ ص٤٠٦.

ربما ينقح فيه بزيادة قليلة، أو حذف كلمة أو كلمات. [١] ،كما يقول الشيخ رشيد رضا:"ولا أذكر أنه انتقد شيئا مما لم يره قبل الطبع، بل كان راضيا بالمكتوب، معجبا به".[٢]

وله أيضا(رسالة التوحيد) و(الرد على هانوتو)و(رسالة الواردات) صغيرة، في الفلسفة والتصوف، و(حاشية على شرح الدواني للعقائد العضدية) و(شرح نهج البلاغة) و(شرح مقامات البديع الهمذاني) و (الإسلام والرد على منتقديه) من مقالاته، و(الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) كالسابق، و (الثورة العرابية) لم يتمه،وللسيد محمد رشيد رضا كتاب جمع فيه آثاره وأخباره وما قيل في رثائه ،وهو(تاريخ الأستاذ الإمام) في ثلاثة أجزاء كبيرة. [٣]

---

(١)التفسير والمفسرون : محمد السيد حسين الذهبي ج٢ ص٤٠٦،ينظر تفسير المنار ج١ ص١٥

(٢) تفسير المنار ج١ ص١٥ ،ينظر :التفسير والمفسرون :الذهبي ج٢ ص٤٠٦.

(٣) الأعلام :الزركلى ج٦ ص٢٥٣-٢٥٤.

المبحث الثالث

الشيخ محمد رشيد رضا

اسمه ونسبه ومولده :

هو محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني،البغدادي الأصل،الحسيني النسب."[١]

ولد يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر جمادى الأولي عام ألف ومائتين واثنين وثمانين للهجرة الموافق الثامن عشر من شهر تشرين الأول سنة ألف وثمانمائة وخمسة وستين ميلادية في قرية قلمون [٢]الواقعة على شاطئ البحر على

---

(١) الأعلام :الزركلى ج٦ ص١٢٦،مقدمة تحقيق تفسير المنار ج١ ص٤

(٢) قلمون بفتح أوله، وثانيه، مثل كلمون: موضع.والقلمون: موضع من قرية الأفاعى بالشام.[مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع : عبد المؤمن بن عبد الحق، ابن شمائل القطيعي البغدادي، الحنبلي، ج٣ ص١١١٨]

بعد زهاء خمسة كيلومترات إلي الجنوب من طرابلس الشام ،ولد بهذه القرية ونشأ بها."[1]

***نشأته العلمية :**

تعلم في مدرسة قلمون قواعد الحساب والخط والقراءة بما فيها قراءة القرآن الكريم، ثم دخل المدرسة الرشدية بطرابلس الشام، وهي مدرسة ابتدائية تابعة للدولة العثمانية ،وكان التعليم فيها باللغة التركية فمكث بها سنة ثم تركها والتحق بالمدرسة الوطنية الإسلامية ،وهي مدرسة أنشأها الشيخ حسين الجسر الأزهري – رحمه الله– ،وكان التعليم في هذه المدرسة يجري باللغة العربية مضافا إليها اللغتان التركية والفرنسية وفي هذه المدرسة توسع في دراسة العلوم العربية والشرعية ودرس المنطق والرياضة والفلسفة ،غير أن هذه المدرسة أغلقتها السلطات العثمانية، فانتقل إلي المدرسة

(١) مشاهير علماء نجد عبد الرحمن بن عبد اللطيف ص٢٨٨.

الدينية بطرابلس وبقي فيها حتى تحصل على الشهادة العالية. "[1]

***شيوخه :**

واصل رشيد رضا تعليمه ودراسته الحرة على أستاذه الشيخ حسين الجسر،الذي أجازه في التدريس وكان له أثر عظيم في تنشئته وتوجيهه الوجهة العلمية النافعة ،كما أخذ علم الحديث والفقه الشافعي عن الشيخ محمود نشابة ،إلي جانب استفادته أدبيًا ودينيًا من الشيخ عبد الغني الرافعي،والشيخ محمد القاوقي الكبير،وكان له أثناء الطلب مطالعة في كتاب الأغاني للأصفهانى وكتاب نهج البلاغة، وكتاب الإحياء لأبي حامد الغزالي ،وقد أثر فيه حيث جعله يميل إلي الزهد والتقشف ،وكان له من ذكائه الفطري ونور البصيرة ما جعله يعرف الضار من كتاب الإحياء فيدع الأخذ به ،كعقيدة الجبرية والأشعرية والشطحات الصوفية وبعض التأويلات المبتدعة ومع ذلك بقي عنده شيء من الميول إلي العزلة

(١) ينظر :مشاهير علماء نجد :عبد الرحمن بن عبد اللطيف ص٢٨٨.

والتقشف ،ولذا انتدب إماما بمسجد القرية الذي بناه جده فصار يؤم الناس فيه ويعظهم."[1]

***تأثر رشيد رضا بالأفغانى ومحمد عبده.**

القارئ لتاريخ الشيخ محمد رشيد رضا يستنتج أنه قد مر بثلاثة مراحل كان لكل مرحلة منها تأثير في حياته الفكرية.

المرحلة الأولى:وهي مرحلة الإعداد والتكوين ،فقد تربى الشيخ على كتب الغزالى وما فيها من زهد وورع وتصوف كان قد شكل له طريق مستقبله.

المرحلة الثانية:مرحلة الإعجاب والتحول،فقد بدا له ما غير وجهته حيث عثر بمكتبة والده الزاخرة بالكتب على بعض أعداد مجلة العروة الوثقى فقرأها وأعجب بها وكان يحفظها ،وكاتب مؤسسها الأفغاني مبديا رغبته في لقائه فعاجلت المنية الأفغاني قبل أن يراه السيد رشيد رضا ،فالتقى بالشيخ محمد عبده مرتين في طرابلس في زيارتين قصيرتين فأعجب به ورغب في الاتصال به، وعزم على الرحيل إليه بمصر سنة ١٣١٤هـ الموافق سنة ١٨٩٦هـ وهي السنة التي توفي

(١)مشاهير علماء نجد :عبد الرحمن بن عبد اللطيف ص٢٨٨-٢٨٩

فيها الأفغاني، وكان قد نال شهادة التدريس العالمية من شيوخه بطرابلس ،وكان والده يأبى عليه السفر فلم يزل به حتى أرضاه وسمح له فسافر إلى مصر بطريق البحر من بيروت فوصل الإسكندرية مساء الجمعة الثالث من كانون الثاني سنة ١٨٩٨م الموافق ١٣١٥هـ ووصل القاهرة يوم السبت في الثامن عشر من شهر سنة ١٨٩٨م الموافق ١٣١٥هـ ،وفي ضحوة اليوم التالي ذهب إلي دار الشيخ محمد عبده في الناصرية لزيارته فقابله وصارحه القول في الغرض من هجرته إلي مصر وأخذ يتردد على داره ويقابله الشيخ محمد عبده كل مرة مقابلة ود وإجلال، فتوثقت أواصر الأخوة والصداقة بينهما فاستشاره في اختياره اسم المجلة التي يزمع إصدارها ،وقدم له عدة أسماء فوقع اختيار الشيخ محمد عبده على اسم "المنار". [١]

(١) ينظر: مشاهير علماء نجد :عبد الرحمن بن عبد اللطيف ص٢٨٩-٢٩٠.

قال رشيد رضا عن الأفغانى ومحمد عبده :"إن مصر لن تنسى ذكر الحكيمين المجددين والإمامين المصلحين الأستاذ جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده ."[1]

المرحلة الثالثة:مرحلة الرجوع والاعتدال،وأقصد بذلك الرجوع إلى مذهب السلف الصالح ،فيعترف رشيد رضا أنه قد حدث تغير جوهرى في مذهبه العقدى ،فبعد أن كان جل اطلاعه وتعلمه على كتب الأشعرية ومصادرهم تحول عن أشعريته إلى مذهب السلف ،فيقول :"كنا عند الابتداء بالاشتغال بعلم الكلام نرى في الكتب خلاف الحنابلة ،فنحسب أنهم قوم جمدوا على ظواهر النقول ما فهموها حق فهمها، ولا عرفوا حقائق العلوم وطابقوا بين النقل وبينها، وأن كتب الأشاعرة هي وحدها منبع الدين وطريق اليقين، ثم اطلعنا على كتب القوم؛ فإذا هي الكتب التي تجلي للمسلمين طريقة السلف المثلى، وتورد الناس موردهم الأحلى، وإذا بقارئها يشعر ببشاشة الإيمان،ويحس بسريان برد الإيقان؛ وإذا الفرق بينها وبين كتب الأشاعرة كالفرق بين من يمشي على الصراط

(١) مقدمة تاريخ الأستاذ الإمام :محمد رشيد رضا ج١ ص١.

السوي، ومن يسبح في بحر لجي، تتدافعه أمواج الشكوك الفلسفية، وتتجاذبه تيارات المباحث النظرية." [1]

ثم يذم الاعتماد على كتب الأشاعرة ،فيقول: " وكتب الأشاعرة قد استغنى الناس عن معظم نظرياتها الآن؛ لأن معظمها من الفلسفة اليونانية، وقد نسخت، وفي مناظرة فرقة المعتزلة، وقد انقرضت. نعم، لا أقول: إن كل ما كتب الحنابلة من المسائل والمباحث صواب، وإنها معصومة من الخطأ؛ فإليها المرجع والمآب، فإن العصمة لكتاب الله وحده ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[النساء:٨٢] [2]

ولقد أظهر رشيد رضا مناصرته لمذهب السلف من خلال تفسيره في مواضع عدة لعل من أهمها إجلاله لبعض رموز السلفية مثل الإمام ابن تيمية حيث يقول :"لم يجئ بعد الإمام ابن حزم من يساميه أو يساويه في سعة علمه وقوة حجته وطول باعه وحفظه للسنة وقدرته على الاستنباط إلا شيخ الإسلام مجدد القرن السابع أحمد تقي الدين بن تيمية،

(١) مجلة المنار ج٨ ص٦١٤.

(٢) المرجع السابق ٦١٤/٨.

وهو قد استفاد من كتب ابن حزم واستدرك عليها وحرر ما كان من ضعف فيها."[١]

كما أظهر مناصرته أيضا للإمام ابن القيم ،فيقول:"وكان الإمام أبو عبد الله محمد بن القيم وارث علم أستاذه ابن تيمية وموضحه، وكان أقرب من أستاذه إلى اللين والرفق بالمبطلين والمخطئين، فلذلك كانت تصانيفه أقرب إلى القبول، ولم يلق من المقاومة والاضطهاد ما لقي أستاذه بتعصب مقلدة المتفقهين، وجهل الحكام الظالمين."[٢]

كما ينبه أيضا على دعوة بعض السلفية المجددين وردهم للبدع والخرافات ،ومن هؤلاء السلف الإمام محمد بن عبد الوهاب ،فيقول "وقد كان من حسنات تأثير الشيخ محمد بن عبد الوهاب المجدد للإسلام في نجد إبطال عبادة الجن وغير الجن منها، ولم يبق فيها إلا أهل تجريد التوحيد وإخلاص العبادة لله، ولكن علماء الأزهر هنا لا يعنون أقل

(١) تفسير المنار ج٧ ص١٢٨.

(٢) تفسير المنار ج٧ ص١٢٨

عناية بمقاومة هذه البدع والخرافات وأمثالها، ولا المعاصي الفاشية في هذه البلاد."[١]

ثم يؤكد على سلفيته هذه ،فيقول "(وأقول) أنا مؤلف هذا التفسير: إنني ولله الحمد على طريقة السلف وهديهم.عليها أحيا وعليها أموت إن شاء الله – تعالى، وإنما أذكر من كلام شيخنا، ومن كلام غيره، ومن تلقاء نفسي بعض التأويلات لما ثبت عندي باختباري الناس أن ما انتشر في الأمة من نظريات الفلاسفة ومذاهب المبتدعة المتقدمين والمتأخرين، جعل قبول مذهب السلف واعتقاده يتوقف في الغالب على تلقيه من الصغر بالبيان الصحيح وتخطئة ما يخالفه، أو طول ممارسة الرد عليهم، ولا نعرف في كتب علماء السنة أنفع في الجمع بين النقل والعقل من كتب شيخي الإسلام ابن تيمية وابن القيم – رحمهما الله – تعالى –، وإنني أقول عن نفسي: إنني لم يطمئن قلبي بمذهب السلف تفصيلا إلا بممارسة هذه الكتب."[٢]

---

(١) تفسير المنار ج٨ ص٣٤١

(٢) المصدر نفسه ج١ ص٢٥٧

***أهداف الشيخ محمد رشيد رضا في لتحقيق الإصلاح الديني :**

للشيخ رشيد رضا أهداف كثيرة لتحقيق الإصلاح الديني يعد من أهمها:

أولا:بيان أن الإسلام يتفق والعقل والعلم ومصالح البشر، وإبطال الشبهات الواردة على الإسلام؛وذلك بإقامة الحجة على أن الإسلام،باعتباره نظاماً دينيا لا يتنافر مع الظروف الحاضرة ،وأن الشريعة أداة عملية صالحة للحكم. [١]

ثانياً: ذم التقليد والمقلدين ولقد أفرد رشيد رضا مساحة كبيرة من تفسيره كان يردد فيها ذلك دائمًا ؛فعند تفسيره لقوله تعالى ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾ [٢]يقول: " لولا أن حيل بين المقلدين وهداية القرآن لكان لهم في هذه الآية أشد زلزال لجمودهم على أقوال الناس وآرائهم في الدين، سواء كانوا من الأحياء أم الميتين، وسواء كان التقليد في العقائد والعبادات أم في أحكام الحلال والحرام

(١)الإسلام والتجديد في مصر :تشارلز آدمس ص١٧٣

(٢) سورة البقرة الآية ١٦٦

؛ إذ كل هذا مما يؤخذ عن الله ورسوله ليس لأحد فيه رأي ولا قول إلا ما كان من الأحكام متعلقا بالقضاء وما يتنازع فيه الناس فلأولي الأمر فيه الاجتهاد بِشَرْطِهِ إِقَامَةً للعدل وحفظًا للمصالح العامة والخاصة."[1]

ويكرر رشيد رضا ذم التقليد والمقلدين كثيرًا في تفسيره ويستدل على ذلك ببعض المسائل الفقهية التى قد يؤدى التقليد فيها إلى التجرؤ على النصوص بعدم فهمها وإعمال العقل فيها ،فيقول" ومن رزئ بالتقليد كان محروما من ثمرة العقل وهي الحكمة، محروما من الخير الكثير الذي أوجبه الله لصاحب الحكمة بقوله: ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة ١٦٩] ،فيكون كالكرة تتقاذفه وسوسة شياطين الجن وجهالة شياطين الإنس، يتوهم أنه قد يستغني بعقول الناس عن عقله، وبفقه الناس عن فقه القرآن، بدعوى أنه جمع كل ما أوجبه القرآن مع زيادة في البيان، وقد يجد في فقه الناس أن الله لم يوجب عليه غير الزكاة التي لا تجب إلا بعد أن يحول الحول وهو مالك للنصاب، وأنه إذا هو وهب

(١) تفسير المنار ج٢ ص٧٠

امرأته ماله قبل انقضاء الحول بيوم أو يومين ثم استوهبها إياه بعد دخول الحول الجديد بيوم أو يومين لم تجب عليه الزكاة، ويمكن على هذا أن يملك ألوفا من الدنانير وتمر عليه السنون والأحوال لا ينفق منها شيئا في سبيل الله ويكون مؤمنا عاملا بفقه الناس، ولكنه إذا عرض نفسه على القرآن وفقه ما أنزل الله فيه من غير تقليد ولا غرور بعظمة شهرة المحتالين المحرفين فإنه يعلم أنه يكون بهذا المنع عدوا لله – تعالى – ولكتابه، محروما من الخير الكثير الذي أتاه الله – تعالى – لأهله."[١]

ثالثًا: تفنيد ما يعزى إلي الإسلام من الخرافات ومقاومة البدع والخرافات التي أضرت بالمسلمين ،وألصقت بالدين ومحاربة العقائد الزائفة وما دخل على العقيدة من بدع في الأولياء ،وما تأتيه طرق المتصوفة من بدع وضلالات ،ثم الحض على التسامح والتآلف بين الفرق المختلفة . [٢]

---

(١) تفسير المنار ج٣ ص٦٦

(٢)ينظر :الإسلام والتجديد في مصر :تشارلز آدمس ص١٧٣

رابعًا:الحث على كثرة إنشاء المدارس ؛لأنها السبيل الوحيد لإزاحة الجهل وإصلاح أعمال الدنيا والدين،وكان ينشر في مجلة المنار لكثير من العلماء والمصلحين وينشر ما كان يقتبسه من دروس شيخه الشيخ محمد عبده ومجالسه بعبارة صحيحة فصيحة يعتز شيخه بعزوها إليه حتى استطاع أن ينشر فضل شيخه ويوجِد له تلاميذا ما كانوا يعرفون شيئا عن الشيخ محمد عبده إلا من مجلة المنار ومطبوعاتها .. (١)

***وسائل الشيخ محمد رشيد رضا في نشر الإصلاح:**

١- مجلة المنار

أنشأ الشيخ مجلة المنار في مدينة القاهرة سنة ١٣١٥هـ الموافق ١٨٩٨م، وصدر العدد الأول منها في الثاني والعشرين من شهر شوال عام ١٣١٥هـ، وكانت أول سنتها غرة ذي القعدة ثم صارت في أول محرم وأصبحت السنة الهجرية هي سنة مجلة المنار الحسابية منذ السنة الخامسة ١٣٢٠هـ واستمر – رحمه الله – في إصدار مجلة المنار

(١) ينظر: مشاهير علماء نجد :عبد الرحمن بن عبد اللطيف ص٢٩٠ –٢٩١.

وطبع الكتب التجارية بمطبعتها وتأليف الكتب النافعة ،وقد بلغت مجلة المنار قبيل وفاته ٣٤ مجلدا .[١]وكانت مجلة المنار من أهم المنافذ التى نشر من خلالها الشيخ أفكاره في الإصلاح وفي محاربة البدع والخرافات.

٢-معهد الدعوة والإرشاد:

رحل الشيخ رشيد رضا بعد" وفاة شيخه الشيخ محمد عبده بأربع سنوات إلي الآستانة للسعي في إنشاء معهد إسلامي يخرج علماء مبرزين يرسلون إلى جميع الأقطار دعاة إلى الإسلام، وبعد مقابلات عديدة لأعضاء الحكومة العثمانية وأركان جمعية الاتحاد والترقي وشيخ الإسلام في الآستانة تكللت جهوده بالنجاح وصدرت الإرادة بالموافقة على اقتراحاته، وصدر الأمر العالي بإنشاء جمعية العلم والإرشاد على أن يكون لها دائرة باسمها،ويتربى ويتعلم في هذه المدرسة طائفة من الطلاب على نفقة المدرسة ،فهي تنفق عليهم لا يكلفون طعاما ولا شرابا ولا لباسا . [٢]

(١)مشاهير علماء نجد ص٢٩٠ -٢٩١.

(٢) المرجع ص٢٩٠ -٢٩١.

تأسست دار الدعوة والإرشاد ،وفتحت أبوابها في الثاني عشر من ربيع الأول عام ١٣٣٠هـ الموافق ١٩١٢م ،فعمل الشيخ محمد رشيد رضا وكيلا لمعهد الدعوة والإرشاد ،وتعهد أن يتم تدريس طلابها على التمسك بآداب الإسلام وأخلاقه وعبادته، كما تُعنى بتعليم التفسير والفقه والحديث، فلا خير في علم لا يصحبه خلق وسلوك رفيع، وأن المدرسة لا تشتغل بالسياسة، وسيُرسل الدعاة المتخرجون إلى أشد البلاد حاجة إلى الدعوة الإسلامية. (١)

وبعد أن مضى على إنشاء دار الدعوة والإرشاد ثلاث سنوات إلا قليلا ، قامت الحرب العالمية الكبرى عام ١٣٣٣هـ الموافق عام ١٩١٤م وأوقفت المساعدات التي كانت تأتيها من الحكومة المصرية. فاضطرت أن تكتفي بمن فيها من الطلبة ،ثم أغلقت أبوابها نهائيا عام ١٩١٦م."(٢)

***وفاته**

(١) السابق مشاهير علماء نجد :عبد الرحمن بن عبد اللطيف ص٢٩٠ –٢٩١.

(٢) مشاهير علماء نجد ص٢٩١ –٢٩٢.

استمر الشيخ رشيد رضا في محاربة البدع والنضال عن عقيدة الإسلام إلي أن توفي فجأة عام ١٣٥٤هـ ،١٩٣٥م في (سيارة) كان راجعا بها من السويس إلى القاهرة. ودفن بالقاهرة. [١]

(١) الأعلام :الزركلى ج٦ ص١٢٦،مقدمة محقق تفسير المنار ج١ ص٤.

فهرس المصادر والمراجع

١ - القرآن الكريم

٢ - الإتقان فى علوم القرآن عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى٩١١هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب طبعة (١٣٩٤هـ-١٩٧٤ م).

٣- الأحاديث الضعيفة والموضوعة التي حكم عليها الحافظ ابن كثير في تفسيره لأبى عبد الرحمن محمود بن محمد الملاح، مكتبة العلوم والحكم- المدينة المنورة، الطبعة الأولى(١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م).

٤- الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان لمحمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى ٣٥٤هـ) تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة- بيروت، الطبعة الأولى(١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م).

٥- أحكام القرآن لأحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي (المتوفى ٣٧٠هـ) تحقيق: محمد صادق القمحاوي،دار إحياء التراث العربي- بيروت،طبعة(١٤٠٥ هـ).

١-أحكام القرآن لعلي بن محمد بن علي، أبو الحسن الطبري، الملقب بعماد الدين، المعروف بالكيا الهراسي الشافعي (المتوفى ٥٠٤هـ)، تحقيق: موسى محمد علي

وعزة عبد عطية، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الثانية(١٤٠٥هـ).
٢- أسباب النزول لأبى الحسن على بن أحمد الواحدى النيسابورى المتوفى (٤٦٨هـ)، الطبعة الثانية (١٤١٢هـ-١٩٩٢م)، دار الأصلاح – الدمام.
٣- التحرير والتنوير محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر - تونس، طبعة(١٩٨٤ م).
٤- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) لمحمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منده علي خليفة القلموني الحسيني (المتوفى: ١٣٥٤هـ). طبعة (١٩٩٠ م)، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
٥- تفسير القرآن العظيم، لأبى الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى٧٧٤هـ) تحقيق: سامي بن محمد سلامة ، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية (١٤٢٠هـ -١٩٩٩ م).
٦- تفسير القرآن العظيم لعبد الرحمن بن محمد بن أبي حاتم الرازي تحقيق: أسعد محمد الطيب، ط: مكتبة نزار الباز، مكة المكرمة، الرياض، الأولى(١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م).
٧- الناسخ والمنسوخ لأبى القاسم هبة الله بن سلامة بن نصر بن علي البغدادي المقري (المتوفى: ٤١٠هـ)، تحقيق: زهير الشاويش، ومحمد كنعان، المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة الأولى(١٤٠٤ هـ).

٨- الناسخ والمنوسخ لأحمد بن محمد بن إسماعيل المرادي النحاس أبو جعفر، تحقيق د. محمد عبد السلام محمد، الطبعة الأولى (١٤٠٨هـ)، مكتبة الفلاح – الكويت

(i) ابن عاشور محمد الطاهر (١٣٩٣هـ-١٩٧٣م)، **التحرير والتنوير**، المقدمة، ج١، ص١٩، ٢٠.

(ii) سيد قطب، **معالم في الطريق**، دار الشروق، القاهرة، ص١٥، تحت عنوان جيل قرآني فريد.

(iii) **بحوث في أصول التفسير** للدكتور محمد بن لطفي الصباغ، ص٢٤٤.

(iv) سيد قطب، **معالم في الطريق**، الشروق، القاهرة، ص١٥ تحت عنوان جيل قرآني فريد.

(v) أبو الأعلى المودودي (١٣٩٩هـ-١٩٧٩م)، **مبادئ أساسية في فهم القرآن**، ترجمة: خليل حامدي الكويت، دار القلم، (ط٣)، ١٣٩١هـ، ص٤٩، ٥١.

(vi) **الإعجازُ العلميُ**: إخبار القرآن الكريم بحقيقةٍ أثبتها العلمُ، وثبتَ عدمُ إمكانية إدراكها بالوسائل المتاحة في زمن نزولِ القرآن، مما يدلُّ على صدق الرسولِ ﷺ فيما بلَّغَ عن الله، أما التفسير العلمي فهو أعم من إبرازِ الإعجاز لأنه يعني تفسير القرآن الكريم في ضوء العلوم التجريبية.

(vii) كما ذكر الشيخ محمد الغزالي (١٤١٦هـ-١٩٩٦م) في كتابه **نحو تفسير موضوعي**، دار الشروق، القاهرة، ص٢٩٢. وقد تعقبتُه هو وعبد الكريم الخطيب (١٣٩٠هـ-١٩٧٠م) الذي تبنى هذا الرأي في كتابه **التفسير القرآني للقرآن**، ج١٩، ص٢٤٥ ط دار الفكر العربي في كتابي **المرأة في القصص القرآني**، دار السلام، القاهرة، (ط١)، ٢٠٠١م، ج٢، ص٥٢٨.

(viii) مسلم في **صحيحه** من حديث أم سلمة -رضي الله عنها-، **صحيح مسلم** كتاب الفضائل باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته حديث ٢٩- (٢٢٩٥)، ج٤، ص١٧٩٥.

(ix) فهد الرومي، **اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر الهجري**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ج٣، ص١١٧٠.